الفصل الثاني

الإبستمولوجيا النسوية نسبوية

«نريد من البشر أن يتحملوا نوعًا من المخاطرة فيما يتعلق باحتمالات وجود خطأ في اعتقادهم، وهكذا فنحن لا نريد منهم أن يبالغوا في التوجس فلا يعتقدوا بأي شيء، لكن في الوقت نفسه لا نريد من البشر أن يسعوا إلى الحقيقة بكل طاقاتهم على حساب احتمال وجود أخطاء واسعة النطاق في اعتقاداتهم»[1]

- تمهيد: إطلالة عامة على التطور التاريخي للإبستمولوجيا
- أولا: دور الإبستمولوجيا في الفلسفة النسوية
- ثانيًا: النسبوية في معالم الإبستمولوجيا النسوية
- ثالثًا: الدور الثوري للإبستمولوجيا النسوية النسبوية
- رابعًا: الميثودولوجيا النسوية منهج نسبوي
- الخلاصة

(1) دنكان بريتشارد، ما المعرفة؟، ترجمة مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، العدد 404، سبتمبر 2013.صـ79.

الفصل الثاني

الإبستمولوجيا النسوية نسبوية

تمهيد: إطلالة عامة على التطور التاريخي للإبستمولوجيا

قبل البدء في الدخول إلى عرض وتحليل الإبستمولوجيا النسوية، وجدت الباحثة أنه من الأفضل أن نبدأ بعرض تطور تاريخي للإبستمولوجيا الكلاسيكية كمدخل ومعبر للإبستمولوجيا النسوية؛ حتى يتبدى لنا أن الإبستمولوجيا النسوية تظهر وكأنها نموذجًا إرشاديًا جديدًا يحلل وينقد ويعالج عيوب النموذج الإرشادي القائم، وهو الإبستمولوجيا الكلاسيكية، مع الوضع في الاعتبار أن النسبوية هي السمة الأساسية والمميزة للإبستمولوجيا النسوية.

لماذا النسبوية ولماذا الإبستمولوجيا؟

ما هي الأهمية التي تضطلع النسبوية والإبستمولوجيا في تحقيقها لنظامي التفكير والفعل الإنسانيين، والتي تجعلها، أي الأهمية، منطلق دراستنا للنسبوية الإبستمولوجية عند لورين كود؟

تأتي الإبستمولوجيا كأحد فروع الفلسفة الثلاث الرئيسة وهي: الأنطولوجيا والإبستمولوجيا والإكسيولوجيا، لتحتل في عصرنا الراهن من مباحث الفلسفة مكان القلب والمركز؛ فهي تهتم بأكثر الجوانب أهمية في حياة الإنسان، وهو الجانب الخاص بالتكوين المعرفي للإنسان الذي تميز به من سائر الأحياء، وكيف يرى العالم من حوله ويعبر عنه،

لذلك فهي من الأهمية بحيث تكاد تتساوى مع أهمية الوجود الإنساني ذاته؛ فهي ما تشكل جوهر حياة البشر.

وتقوم الإبستمولوجيا بدراسة عملية إنتاج المعرفة: كيف نحصل عليها؟ وكيف نتأكد من كونها حقيقية، أو قل صادقة؟ ولعلنا في غنى أن نوضح قيمة كونها صادقة أو حقيقية، فالموضوع ظاهر جلي؛ فجميعنا يفهم ما معنى وقيمة أن كوننا نمتلك معرفة حقيقية من كوننا نمتلك معرفة خادعة من الممكن أن تؤدي إلى تشكيل حياة الإنسان على وعي خاطي، ومن ثم حياة زائفة. يهتم الإنسان طوال حياته بتحقيق أهداف معينة يضعها هو، ويعمل على دراسة السبل المؤدية إليها، لذلك إن لم يمتلك المعرفة الحقيقية التي تؤهله لذلك فلن يحقق أهدافه وسوف تضيع حياته هباء ويذهب سعيه سدى، هذا على المستوى العملي العاجل.

لكن الفلسفة عادة ما تهتم بمشكلات أجل خطرا من تلك العملية العاجلة، فهي تَوجُه دائم نحو الأسس والجذور[1]. وحين تهتم الفلسفة بمشكلات المعرفة فليس ذلك إلا لأن المعرفة عموما والمعرفة العلمية خصوصا أظهرت عبر تاريخها محطات لا حصر لها، ركن عندها العلماء والمفكرون إلى راحة اليقين، فإذا بهم تظهر بعد حين من الدهر دروبا من المشاهدات المزلزلة لهذا اليقين المُقضّة لهذه الراحة، فيعيد الإنسان بحثه عن يقين آخر أكثر أمنا وراحة ورسوخا وذلك عبر بحثه وسعيه لفض التناقضات وحل الأزمات التي تظهر فيما عقد عليه معارفه، وتكرر ذلك مرات لا حصر لها عبر تاريخ الإنسانية (ولعل ذلك ما حدا بفلسفة العلم أن تهتم اهتماما بالغا بتاريخ العلم). فكان أن شك الإنسان فيما يعرِف شكا لم يقم بعده يقين إلا في أذهان السذج منهم. وكان أن نهضت الإبستمولوجيا الحديثة لمعالجة هذه الأزمة التي تركت شرخا غائرا في جوهر الإنسان، في عقله ومعرفته، محاولة بناء تصور عن طبيعة المعرفة، وهل هي حقا معرفة عن العالم الخارجي أم هي مجرد تمثلات ذهنية وبناءات موازية للعالم في الذات العارفة ليس إلا؟

(1) هذا وإن رغبت الفلسفة النسوية عن هذا التوجه الجذري الأسسي واعتبارها (أي الأسسية) نزعة مصدرها الحنين إلى يقينيات ومطلقات الحداثة وما قبلها؛ فتحولت (أي الفلسفة النسوية) عن أسس المعرفة إلى تفعيلاتها ونسبويتها... إلخ.

ولماذا النسبوية تحديدا؟ ذلك لأن الإبستمولوجيا النسوية نسبوية، بينما الإبستمولوجيا الكلاسيكية أسسية. فالإبستمولوجيا الكلاسيكية تقوم على افتراض أن هناك مجموعة من المعايير والقوالب والأسس المحددة سلفا من قبل الجماعة العلمية التي أقرتها وتعتبرها حقيقة مطلقة، أما الابستمولوجيا النسوية فأهم معلم من معالمها أنها نسبوية: ترفض أن تكون هناك معايير قبلية ثابتة للمعرفة، بينما تضع في اعتبارها العديد من الملامح الأخرى للمعرفة، مثل، جنس العارف والذاتية ونسبية الحقيقة. كما أن الإبستمولوجيا النسوية يتركز اهتمامها على تفعيل الإبستمولوجيا ودورها في حياة البشر وفي تغيير الواقع؛ لذلك، تؤكد النسويات دائما أن الإبستمولوجيا النسوية هي إنتاج معرفة بديلة من أجل تغيير الواقع الذي أهملته الإبستمولوجيا الكلاسيكية وغاصت في الجانب النظري تحلل وتنتقد دعاوي المشككين في إمكانية قيام معرفة، حتى نسيتْ الهدف والمسعى الأساسي، وهو إنتاج معرفة تشكل حياة البشر وتتعامل مع واقعهم المعيش وتسهم في صياغته وتكوينه.

وقد يوضح هذا كون الإبستمولوجيا موضوع مهم للإنسان في كونه إنسانا لا يتوقف على دارسي الفلسفة فقط، وإنما هي إنسانية الإنسان ومضمن وجوده واستمراره في الحياة، وذلك على الرغم مما يظهر لنا من كونها موضوع مجرد ينتمي إلى الأوساط الأكاديمية فقط، وهذا ما يؤكد عليه دنكان بريتشارد حين يقول: «نحن نهتم بالمعرفة لأنها ذات أهمية جوهرية للحياة التي تتضمن قيمة تجعلها تستحق أن يعيشها الإنسان، ربما كانت مسائل الإبستمولوجيا ذات طابع تجريدي، بيد أن أهميتها لحياتنا مسألة حيوية بكل تأكيد»[1]. لذلك وجب التأكيد من قبل النسويات على هذه الأهمية المتعينة في الواقع الاجتماعي والحياتي لمبحث الإبستمولوجيا للإنسانية جمعاء، أكثر من مجرد دراستها كموضوع مجرد ينتمي إلى المباحث الأساسية في الفلسفة. ولِمَ لا، ومن المفترض أن تنطلق الفلسفة نفسها من حيوات البشر؟

ما ينبغي أن ندلف مباشرة إلى النسبوية الإبستمولوجية عند لورين، والتي نهضت بالأساس لنقد وإصلاح الإبستمولوجيا السائدة، ونحن لم نعرض بعد إلى هذا الذي تم نقده

(1) دنكان بريتشارد، ما المعرفة؟، مرجع السابق، صـ9.

و إصلاحه، أي الإبستمولوجيا السائدة؛ لأن النقد هو تحليل وتفنيد لعناصر رؤية أو توجه ما، وكذلك الإصلاح فهو إعادة التركيب ولكن بترتيب مباين، وما لم نرسم معالم هذا المنقود خرج الكلام عن هذا النقد كصورة بلا مضمون. كذلك فإن البناء الجديد لابد من تبيان ذلك الذي يتميز عنه حتى نتلمس حدود هذا التمييز. وانطلاقا مما نعرفه من اهتمام بالغ للفلسفة بإيضاح المفاهيم وتحديد المصطلحات؛ فاللغة والمصطلحات هي «صورة الحياة» بحد تعبير فتجنشتين؛ فإن أول ما يجب علينا في البداية هو استعراض مفهوم الإبستمولوجيا أو نظرية المعرفة.

أ- المفهوم:

لغةً: «تأتي كلمة إبستمولوجيا من كلمتين يونانيتين: إبيستميه episteme وتعني معرفة، ولوجوس logos وتعني دراسة كذا (أو نظرية كذا). وفي اللغة الإنجليزية يستعمل تعبير نظرية المعرفة theory of knowledge بالتعاوض مع كلمة إبستمولوجيا»[1]

اصطلاحًا: الإبستمولوجيا، هي التي تهتم بدراسة المعرفة، كيفية الحصول على المعرفة، طبيعة المعرفة ومصادرها وتركيبها وحدودها، كيفية الوصول في النهاية إلى معرفة يمكن الاعتماد عليها، أي معرفة صادقة عن العالم الخارجي، إنتاج المعرفة... هذا هو مجال الإبستمولوجيا[2].

(1) وليم جيمس إيرل، مدخل إلى الفلسفة، عادل مصطفى، مراجعة يمنى طريف الخولي، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2011، صـ 45.

(2) هنا وجب التنويه على أن «مفهوم الإبستمولوجيا في أغلب الخطاب الفلسفي المعاصر قد تعقد كثيرًا بحيث لم تعد الكلمة تعني ما كانت تعنيه في الماضي، أي لم تعد هي نظرية المعرفة التقليدية. فهذه الأخيرة تهتم بجميع ألوان المعارف دون تخصيص، أي بقدرتنا العارفة أيا كان موضوع المعرفة. بينما اختصت الإبستمولوجيا الآن بصنف خاص من المعرفة هو المعرفة العلمية... فالإبستمولوجيا هي نظرية الإنتاج النوعي للمفاهيم العلمية «. المرجع السابق، هامش صفحة 45.

ولكننا هنا سوف نركز على الإبستمولوجيا التي تتناولها لورين كود وهي المعنى الموضح قبلا بأنها عملية إنتاج المعرفة وهي التي تناقشها في كتاباتها وتهتم بها النسوية في محاولتها لإنتاج صورة بديلة للمعرفة تحمل خبرة النساء على كل الأصعدة وخاصة الوعي الجمعي.

ب- بنية الإبستمولوجيا:

مما تتكون نظرية المعرفة؟ بداية، تبدأ عملية تكون المعرفة من خلال تصور أو اعتقاد بشيء ما يدور في العقل، ولكن هل كل تصور أو اعتقاد يعد معرفة أم أن هناك شروط لهذا التصور أو الاعتقاد لكي يمكننا اعتماده كمعرفة؟ بالطبع هناك شروط، وهي أن يكون هذا التصور أو الاعتقاد صادقًا، وصدق الاعتقاد يعني أنه ينقل صورة صحيحة عن العالم الخارجي، ومعيار هذه الصحة التي تتمتع بها هذه الصورة هو أن تكون مبررة. إذن المعرفة هي: اعتقاد صادق مبرر، وهكذا يكون لدى المرء معرفة حينما تتكون لديه معادلة من ثلاثة حدود كالتالي:

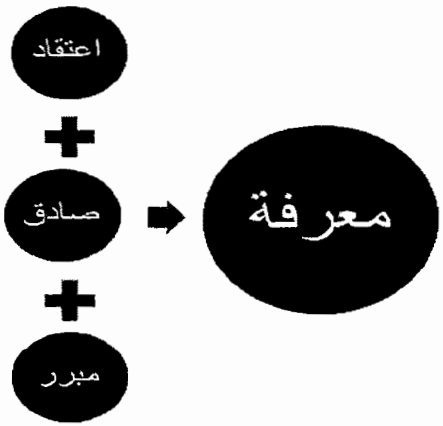

ولنحلل كل طرف من أطراف المعادلة السابقة:

الاعتقاد: وهو الشرط الأول والأكثر أهمية، فلا يمكننا امتلاك معرفة من الأساس بدون أن يكون لدينا مجموعة من الاعتقادات. ولكن من الواضح أيضا أن ليس كل اعتقاد يصلح لأن يكون معرفة، لذلك وضعت شروط أخرى ضرورية للحكم على صلاحية هذا الاعتقاد لكونه يمثل معرفة أم لا، وعلينا أن نميز بين نوعين من الاعتقاد لضمان عدم حدوث لبس في الموضوع، فالاعتقاد المقصود بتكوين المعرفة هنا هو الاعتقاد أن كذا من الممكن أن تكون كذا، وليس الاعتقاد في (شيء ما) والذي يعني إيماني الشخصي به مثل أنني أعتقد

أو أومن بأن هناك خلود بعد الموت[1]، فالاعتقاد يجب أن يحتوي على قضية قابلة للتحليل والاستدلال الموضوعي، والآن بعد امتلاكنا مجموعة من المعتقدات القضوية يمكننا أن نذهب إلى الطرف الثاني للمعادلة.

الصدق[2]: لكي يكون الاعتقاد معرفة، عليه أن يكون صادقا. وهنا نشأت مجموعة من النظريات تحاول كل منها وضع مفهوم للصدق، ماذا يعني كون قضية ما صادقة؟

في البداية كان يجب توضيح نقطة مهمة وخاصة بالمفهوم هنا، وهي أن الصدق المقصود هنا هو صدق القضايا، و بالتحديد الصدق المنطقي، أي ذلك المتعلق بمدى مطابقة القضية من عدمها للحقيقة الواقعة، وليس صدق الحقيقة الواقعية في ذاتها. ونجد هنا نظرية اللانظرية، وهي تنكر حاجتنا إلى الصدق من الأساس. ونظرية التناظر، وهي الأكثر قبولا، وترى أن القضية صادقة في حالة تناظرها مع الواقع، أي أنها مطابقة للواقع. ونظرية التساوق، وتعني الاتساق مع جميع العبارات الصادقة الأخرى. والنظرية البرجماتية، أي كونها مفيدة تحقق منفعة. ونظرية إمكانية الإقرار، وتعني التبرير الملائم، أي هناك ما يبرر صدقها.

يأتي التبرير الطرف الثالث في تحليل القياس المنطقي للمعرفة، ولكن ماذا نعني بالتبرير؟ «لغة: برر عمله زكاه وذكر من الأسباب ما يبيحه ويجوزه و يسوغه. واصطلاحًا: عملية عقلية تدفع المرء دون شعور منه إلى اصطناع أحكام، وهذه الأحكام تستند إلى انفعالات و إلى أسباب قد تكون خيرة أو شريرة.»[3]

---

(1) أي أن القضية موضوع الاعتقاد يجب أن تخضع لمبدأ «التحقق» عند الوضعيين المناطقة، والتي انقلبت مع كارل بوبر إلى مبدأ «القابلية للتكذيب والاختبار التجريبي». وهو ما لا تخضع له قضيا الاعتقاد القائم على الإيمان الغيبي مثل الاعتقاد بالخلود بعد الموت.

(2) المصطلح الإنجليزي Truth يحمل هذه البدائل العربية الثلاث الحقيقة/ الحق/ الصدق بالكفاءة نفسها. وهي لا تخلو من ترادف وتراوح يشمل مجالات الفلسفة الأساسية: الحقيقة للوجود أو الأنطولوجيا، والحق للقيمة أو الإكسيولوجيا والصدق للمعرفة أو الإبستمولوجيا. يمنى الخولي في صفحة 173 من هوامش ومراجع «نحو توطين المنهجية العلمية في العالم الإسلامي. رؤية فلسفية، في قضايا فكرية، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 43، العدد 2، (أكتوبر - ديسمبر)2014، ص119 - ص178.»

(3) مراد وهبه، المعجم الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2016، صـ 188.

عقد الفلاسفة - وبالأخص التحليليون - آراءهم على أن المعرفة هي اعتقاد صادق مبرر، وأن هذه هي الشروط الكافية للمعرفة، واستقر الأمر إلى حد ما، إلى أن ظهر مقال في مجلة فلسفية شهيرة وهي مجلة تحليل «Analysis» وتحت عنوان: هل الاعتقاد الحقيقي المبرر يُعد معرفة؟ Is Justified True Belief Knowledge? وكان المقال لأستاذ جامعي هو إدموند جيتر Edmund Gettier[1] يبحث عن ترقية سريعة، فاستلفت الموضوع اهتمامه وقرأ عنه، فإذا به يجد أمثلة تؤكد أن الشروط الأساسية التي تم الاتفاق عليها هي شروط غير كافية للمعرفة، ووضح جيتر ذلك في مقال له لا يتجاوز الثلاث ورقات. وتوصل إلى أمثلة أثبت من خلالها أن المرء يستطيع أن يمتلك اعتقادا حقيقيا عن طريق الصدفة، من خلال فرضيات خاطئة، ولكن لن يكون لديه معرفة حقيقية على الرغم من انطباق الشروط السابقة. أثار الجدل وبدأت موجة جديدة من تحديد شروط للاعتقاد لكي يكون لنا معرفة صحيحة، وقد صيغت هذه الأزمة تحت مسمى «معضلة جيتر»[2]، والتي كان موجزها أن الاعتقاد الصادق

(1) هو فيلسوف أمريكي ولد عام 1927 ويعمل الآن أستاذًا في جامعة ماساتشوستس.

(2) من الأمثلة التي ذكرها جيتر لتوضيح فكرته في أن الاعتقاد الحقيقي المبرر ليست شروطا كافية لإنتاج معرفة الآتي: «تخيل أن رجلا، ولنفترض اسمه جون، كان ينزل درجات السلم في الصباح ويرى أن الوقت الذي تشير إليه الساعة الكبيرة التي في الصالة هو 8,20. على هذا الأساس يتوصل جون إلى الاعتقاد بأن الوقت هو 8,20 صباحا، وهذا الاعتقاد حقيقي لأن الساعة فعلا كانت تشير إلى 8,20 صباحا. علاوة على ذلك، فإن اعتقاد جون مبرر لأنه يستند إلى أسس رصينة. على سبيل المثال، لقد اعتاد جون نزول السلم كل صباح في هذا الوقت تقريبا، لذلك فهو يعرف أن الوقت لابد أن يكون صحيحًا تمامًا. كذلك فإن الساعة كانت دقيقة جدًا إلى درجة موثوق بها في الإشارة إلى الوقت منذ سنوات طويلة وليس لدى جون أي سبب يدعوه إلى الشك في أنها غير دقيقة الآن. وهكذا فإن لدى جون الكثير من المبررات الوجيهة التي تدعوه إلى اليقين بأن الوقت الذي تشير إليه الساعة كان صحيحا تمامًا. لنفترض أيضا أن الساعة، وهذا شيء مجهول بالنسبة لجون، كانت قد توقفت منذ 24 ساعة ماضية، بحيث أن جون الآن يتوصل إلى اعتقاده الحقيقي المبرر من خلال النظر إلى ساعة متوقفة عن العمل. من الناحية البديهية، إذا حصلت مثل هذه الحالة فإن جون سوف يفتقر حتما إلى المعرفة على الرغم من أنه قد مر بالملابسات التي تقتضيها الجوانب الثلاثة للمعرفة. هكذا فإن القول بأن جون لديه اعتقاد حقيقي هنا يصبح مسألة تتعلق حتما بالحظ... لو كان جون قد نزل السلالم قبل ذلك، أو ربما بعد ذلك بلحظة - أو إذا كانت الساعة قد توقفت عند وقت مختلف قليلا - لكان قد حصل على اعتقاد زائف عن الوقت من خلال النظر إلى هذه الساعة. إذن بإمكاننا الاستنتاج أن المعرفة ليست ببساطة مجرد اعتقاد حقيقي مبرر. أنظر: دنكان بريتشارد، ما المعرفة؟، مرجع سابق، صـ52 - 53.

المبرر ربما يكون ضروريا ولكنه ليس كافيا، وهنا عاد البحث من جديد في تحديد الحد الأدنى من الشروط اللازمة لاكتساب المعرفة، وانحسرت الجهود المبذولة في هذا الحقل فقط.

ج- مصادر المعرفة:

من أين نحصل على الاعتقادات التي من خلالها تتكون لدينا المعرفة؟ وهنا توجد نظريات ثلاث، الأولى: أنني أحصل عليها من خلال الحواس. والثانية: العقل. والثالثة: الحدس. وهنا، وبشكل موجز، يمكننا القول بالمصادر التي نكون منها اعتقاداتنا من خلال العرض لثلاثة مذاهب أساسية للمعرفة وهي:

1- المذهب التجريبي Empiricism.

2- المذهب العقلي Rationalism.

3- المذهب الحدسي Intuitionism.

المذهب التجريبي كان تركيزه على الإدراك الحسي والحواس الخمس لدى الإنسان، وأكد أن الإنسان يكتسب المعرفة من خلال الخبرة الحسية، والتجارب التي يمر بها تجعله يستطيع تكوين معارف جيدة ويحقق قواعد ينطلق من خلالها في تكوينه المعرفي. أما المذهب العقلي فكان جُل اهتمامه بالعقل وأكد أن المعرفة الحقيقية هي المعرفة التي تأتي من خلال العقل وانتقدوا المعرفة الحسية لأن الحواس لا تصدق دائما وأنه من الأفضل الاعتماد على العقل. وأما المذهب الحدسي القائم على الاستبطان، أي المعرفة والملاحظة الذاتية للأفكار والأحاسيس العقلية مثل الجوع والألم، فأكدوا على أن المعرفة موجودة بداخل الإنسان لا في العالم الخارجي وأن عليه فقط أن يكتشفها ويخرجها.

د- حدود المعرفة

هل معرفتنا محدودة؟ هل يستطيع الإنسان أن يصل إلى الحقيقة الكاملة؟ هل للمعرفة حدودا لا تتخطاها؟ تم تناول الموضوع من قبل التجريبيين، وكان شعارهم:

(المعرفة حسية)، أي التي نحصل عليها من خلال الحواس. وعلى رأسهم الفيلسوف الشهير «جون لوك»، والذي قال بأن العقل صفحة بيضاء تنتقش عليها تصورات العالم الخارجي مكونة المعرفة. وربما تشابه هذا التعريف مع تعريف الفلاسفة المسلمين كثيرًا، فقد فسروا المعرفة على أنها: «انتقاش النفس بصورة العالم، حتى تصير عالمًا مثله»[1]

- **العقليون والمثاليون:** يقولون بأن هناك مبادئ متصلة بالعقل ولا يمكن اكتسابها بالخبرة الحسية، وأنه بالعقل يمكننا التوصل إلى المعرفة الحقة واقفين بذلك في مواجهة الشكاك.

- **الشكاك:** رفضوا وجود معرفة من الأساس، استنادًا إلى أننا لا ندرك الواقع بشكل مؤكد لكي نكون من خلاله معرفتنا، وأن العالم مجرد تصورات في الذهن، وليس ما هو واقع فعلاً، فكيف نمتلك فيه معرفة أو نبحث فيه عن حقيقة؟!

وهكذا ثارت الجدالات ما بين القائلين بأن المعرفة اليقينية تأتي عن طريق الحواس من ناحية، والقائلين إنها تأتي فقط من خلال العقل من ناحية أخرى، وبين القائلين إن معرفتنا مستحيلة من ناحية ثالثة. إلى أن جاء الفيلسوف الكبير «كانط» بكتابه «نقد العقل الخالص» ونقد فيه كل الاتجاهات، وقال بالمعرفة القبيلة والمعرفة البعدية، كما وضع أيضا تصورا مبتكرا لملكة الخيال. وظل النقاش دائرا حول المعرفة اليقينية، هل هي حقيقة أم ليست موجودة أصلا و إنما هي احتمالية؟ أم معرفتنا بالعالم الخارجي مستحيلة وأنه فقط ظن خادع. ومن ثم ظهرت نظريات تتناول موضوع المعرفة بشكل يختلف عن قناعات كل نظرية.

هـ- نظريات في المعرفة

أخذت الإبستمولوجيا في التطور، وظهرت بها العديد من التيارات التي تبحث من خلال جانب مختلف ورؤية مختلفة عن الأخرى. وكما أوضحنا سابقًا، فإن مفهوم

(1) الإمام الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دُنيا، ط3، دار المعارف، مصر، صـ5.

الإبستمولوجيا نفسه قد تطور كثيرًا حتى أصبح لا يقتصر على معالجة موضوع إنتاج المعرفة فقط، و إنما أصبح علما مستقلا يُعنى بالمفاهيم النوعية للعلوم، وأصبح لكل علم إبستمولوجيا تعنى بالمفاهيم النوعية الخاصة بهذا العلم تحديدًا، ولذلك ظهرت إبستمولوجيات متعددة مثل:

الإبستمولوجيا الدينية	Religious Epistemology
الإبستمولوجيا الطبيعانية	Naturalistic Epistemology
الإبستمولوجيا الأخلاقية	Moral Epistemology
الإبستمولوجيا الاجتماعية	Social Epistemology
الإبستمولوجيا النسوية	Feminist Epistemology

وقد ظهرت الإبستمولوجيا النسوية كمحاولة لإعادة إنتاج المعرفة في حقل الفلسفة النسوية التي بدأت رحلة البحث والتنقيب والتحليل عن مدى معاناة الأنوثة على مر الأزمان من الاضطهاد والظلم والتهميش في العلم والفلسفة، ولماذا لم يظهر لهن مشاركات في العلم والفلسفة بهذا الشكل المثير للاستغراب؟ وكأنهن تم محوهن بعناية بالغة وبحيث لم يُترك أي أثر للتعقب. ولكن جاءت النسويات باحثات محللات عاكفات على النصوص القديمة؛ لتبحث عن سر اختفاء المرأة من مجال إنتاج العلم والفلسفة. فمن غير المعقول ألا يكون هناك إسهامًا مطلقًا، ولو كان ضعيفا. وفرضا بصحة ما سبق، و إنهن لم يسهمن بشيء في العلم والحضارة، كيف حدث؟ وما هي العوامل التي أدت لذلك؟

كان المنطلق الأساسي والتساؤل الأول للنظرية النسوية قائما على: لماذا يبدو لنا العالم بالشكل الذي هو عليه الآن؟ ولماذا يظهر الرجل كونه جوهر خالص والمرأة كونها آخر؟ وهذا التساؤل يعود في جذوره إلى سيمون دي بفوار في عام 1952 حينما قالت في كتابها الشهير والمؤسس للحركة النسوية «الجنس الآخر»: «إن تمثل العالم كما هو، إنما هو من

عمل الرجال، إنهم يصفونه من وجهة نظرهم الخاصة، ثم ينطلقون من كون هذه الرؤية تمثل الحقيقة المطلقة»[1]. لذلك، انصب عمل النظرية النسوية على كشف رؤية الرجل للعالم وكيف أنها شكلت حياة الجميع، المرأة، والمهمشين والبيئة، فقط أصبح الرجل الأبيض الغربي هو النموذج للرجل المتعلم والناضج، وقد قدمت لورين كود طرحها للإبستمولوجيا النسوية من هذا المنطلق أيضا؛ فهي تعتبر أن نظرية المعرفة التي قام بإعدادها الفلاسفة المتخصصين في التيار السائد في الفلسفة هي أيضا من صناعة الرجل. و إذا كانت المعرفة التي تشكل حيوات النساء خصوصا والمهمشين والبيئة عموما من صناعة الرجل فكيف نتوقع منها أن تعبر عنهم أو حتى تعرض لمشكلاتهم؟! و بالطبع سوف تكون معرفة معبرة فقط عن رؤية الرجل الأبيض الغربي للعالم وتمثله. فالمعرفة المنتجة هي معرفة مهيمنة ومتسلطة على الأطراف الأخرى، تنطلق من كون الرجل الغربي هو الوحيد القادر على صناعة المعرفة والعلم وتشييد الحضارات. وتقول كود عن المعرفة السائدة التي يعتبرها المجتمع الغربي حقيقة مطلقة: «إن رؤية الرجل الأبيض للعالم تعتبر هي الحقيقة المطلقة عما ينبغي أن نعرف به العالم ونقدمه»[2] أي أن رؤيته تعكس الطريقة المثلى لما ينبغي أن يكون عليه.

وتحلل كود أيضا كيف أن الادعاءات السابقة تؤكدها الصورة التي يعكسها العلم عن المرأة وكيف أنها أدنى من الرجل في المجالات العلمية وخبرتها أقل من خبرة الرجل، فكيف تنصف المرأة معرفة منتجة من قبل الرجل؟ وكما ذكرت سيمون دي بفوار مقولة لمغمور مدافع عن حقوق المرأة تقول: «قال أحد أنصار المرأة المغمورين: «كل ما كتب عن المرأة من قبل الرجال يجب أن يثير الشبهات لأنهم خصوم وحكام في الوقت ذاته. وقد سخروا اللاهوت والفلسفة والقوانين لخدمة مصالحهم»»[3] ولذلك أصبح ظاهرًا بداهة كون نظرية

(1) According to Code.L.What Can She Know? Feminist Theory and the Construction of Knowledge, Cornell University Press,P.ix.

(2) Ibid. P.ix.

(3) سيمون دي بفوار، الجنس الآخر، ترجمة لجنة من أساتذة الجامعة، صـ8.

المعرفة السائدة في حاجة إلى إعادة إنتاج وأصبحت مشروع نسوي ملح ومهم في الوقت ذاته.

لذلك قدمت كود فحصا وتحليلا لنظرية المعرفة السائدة من هذا المنطلق، كونها منتج ذكوري يعتبر نفسه محايدا وموضوعيا وعالميا أيضا، فتحلل كود كيف أن هذا التيار الذي يرفع لواء الحيادية والموضوعية من أجل الوصول إلى الحقيقة هو نفسه يعبر عن آراء متحيزة لجانب واحد ممثل لمجموعة امتيازات للرجل الأبيض فتتشكل المعرفة نتيجة لاهتمامات الرجل وتبعا لامتيازات المجموعة التي حددها لتكون صناعي المعرفة. وهنا تتساءل لورين: ماذا عن النساء اللائي هن خارج هذه المجموعة؟ ماذا عن خبراتهن وتجاربهن أليست جديرة بأن تكون معرفة؟ وما هي المعرفة حقا ومن هو العارف الحقيقي؟[1]

وتذهب كود على أن الحيادية الجنوسية/الجندرية التي تقوم على عزل الذاتية تمثل خطأ كبيرا في الطريق لمعرفة الحقيقية؛ لأن التصورات الاجتماعية تنعكس على المعرفة بشكل كبير بل وتدخل في تشكيل مفاهيمها الأساسية: «إن الاعتقادات الفلسفية عن المعرفة والسلطة تشكلت وتتشكل من خلال التصورات الاجتماعية التي تحدد كيف يكون العارف جيدًا وأيضا كيف تَمنح المعرفة الخبرة»[2] فكيف يمكننا إنتاج معرفة بمعزل عن هذه التصورات؟

لقد كرس الإبستمولوجيون أبحاثهم حول إمكانيات الحصول على المعرفة والشروط اللازمة لذلك، انطلاقا من اهتمامهم بموضوع المعرفة، وتناسوا تمامًا الذات العارفة التي لها الدور المحوري في العملية المعرفية؛ فهي التي تقوم بالعملية كلها أصلا، وانطلقوا مرددين المنهجية والموضوعية التي تؤكد صحة ما يتوصلوا إليه، وتنحية الذاتية جانبا يعد من شروط المعرفة الحقيقية. تركز اهتمامهم على أن تكون هناك أسس ثابتة للمعرفة بحيث تكون الأنموذج أو القالب الذي يفترض أن تتلاءم معه المعرفة لتكون معرفة، وكذلك عزل الذاتية والعارف عن موضوعه توخيا للنزاهة والحيادية. ولكي تكون المعرفة موثوقة يجب أن تكون

(1) Code. L.What Can She Know? Ibid, p. x.

(2) Ibid. P.xi.

الموضوعية هي سمتها الأولى. فأصبحت الموضوعية النقية المنشودة وقيمة الحيادية والنزاهة بمثابة الدوجما لدى العاملين في حقل العلم وفي حقل الإبستمولوجيا. ولكن رأيا آخر رأته الفلسفة النسوية.

اكتشفت النسويات خلال عملهن أن التاريخ قد طمس الإسهامات النسوية، وعن عمد، وأن قوانين العلوم وُضعت بيدٍ ذكورية، واستمرت على نفس المنوال في تجددها وتطورها، وتم تنحية الأنوثة جانبا انطلاقا من عدم قدرتهن على إثبات ذواتهن، للوصول إلى معرفة علمية صحيحة موضوعية وحيادية.

ونظرا للثورتين العلميتين اللتين قامتا في العلوم الفيزيائية، وهما ثورة الكوانتم وثورة النسبية؛ فإن الثوابت العلمية قد تخلخلت، أصاب العقل الإنساني شك عميق في إمكانية قيام ثوابت في أي علم من العلوم أصلا، فكيفية وصفنا للعالم ورؤيتنا له وتعبيرنا عنه أمسى مختلفا تماما عن ذي قبل، وأضحى عائما بالشكل الذي سمح معه بانبثاق تيار النسبوية العلمية، والتي اكتسحت كل المجالات الإنسانية فيما بعد.

واستنادا لما سبق، انطلقت النسويات يفضحن المؤامرات الذكورية ويكشفن المستور لرفع الحجب عن الأعمال النسوية في كل المجالات، ورفع الظلم المعرفي بإعادة إنتاج المعرفة بشكل يضمن وجود خبرة المرأة وتجربتها، ومن هنا جاءت الإبستمولوجيا النسوية كرد فعل على الإبستمولوجيا الكلاسيكية.

أولا: دور الإبستمولوجيا في الفلسفة النسوية

عملت الفلسفة النسوية على نظرية المعرفة، تلك التي تعد مبحثا عسيرًا ومهمًا في الفلسفة، وقامت بعمل تحليلات للمقولات الأساسية للمعرفة وتحليل الآراء المتعلقة بها، وقد كان شعارها: «إنتاج معرفة بديلة من أجل تغيير الواقع»، أي أنه لكي يغيرن الواقع المعرفي الذكوري، كان عليهن أن يعدن إلى الوراء فاحصات ومدققات في تاريخ تكوينه حتى يستطعن إنتاج البديل الجديد. وقد قدمت «لورين كود» دعوة في مقدمة لكتاب

«اكتشاف الواقع: رؤى نسوية لنظرية المعرفة والميتافيزيقا والمنهج وفلسفة العلم» (1983) لساندرا هاردنج وميريل هينتيكا، والتي وصفت بكونها دعوة ثورية لفلاسفة النسوية، وتقول عنها باميلا سو أندرسون: وكانت هذه الدعوة دعوة إلى «اقتلاع صور التشويه والشرور القائمة على التحيز الجنسي الكامنة في «صميم» التفكير العقلاني المجرد الذي يقف حصنا منيعا لا تخترقه القيم الاجتماعية» و إلى «تحديد كيفية تشكيل الرؤى الذكورية لجوانب الفكر التي يفترض أنها محايدة كل الحيدة فيما يتعلق بالنوع»[1]

وقد لاحظت النسويات أن إنتاج المعرفة بخصوص المرأة ووجودها كذات عارفة أمرًا غير مقبول لدى المجتمع بشكل كبير، ووجدن أن العلم أصبح يقوم على التمايز الجنسي، وكون العلم عقلانيًا وموضوعيًا فبالطبع المقصود به الرجل لأنه وحده المتصف بالعقلانية والموضوعية التي يتطلبها العلم، أما النساء فهن متصفات باللاعقلانية وبالبعد كل البعد عن الموضوعية. خبرتهن مشوبة بالعاطفة؛ وبالتالي لا تصلح لإنتاج معرفة علمية. وحتى وقتنا الراهن لا يتم تشجيع الفتيات على دراسة علوم معينة مثل الرياضيات والفيزياء كونها مجالات رجال، ويتم التشجيع على ذلك من الأهل والأسرة أو من المدرسين في المدرسة أو المجتمع المحيط بالفتاة، مما يساعد أكثر في ترسيخ مثل هذه الأفكار المغلوطة عن خبرة المرأة وعدم قدرتها على إنتاج المعرفة العلمية. مما أكد لهن أن الواقع المعرفي للمرأة وضعه الرجل ليضمن استمرارية وضعها كفئة ثانية وغير كفؤة لمجالات العلم والمعرفة.

ومن ناحية أخرى، فقد قامت كل من ساندرا هاردنج ولورين كود وهلين لونجينو بالبحث والتحري في مجال الإبستمولوجيا والمجتمعات الإبستمولوجية، فوجدن أن مجتمع العارفين، والمعتد بهم كخبراء في المجال المعرفي ومن يتم التصديق على افتراضاتهم ووصفها بالمصداقية المطلوبة، وجدنه قائمًا على التمايز الجنسي بل والتمييز أيضا على أساس الطبقة والعرق، وجميع العاملين به فئة واحدة هم الرجال البيض الغربيون المغايرون جنسيا، كما

(1) باميلا سو أندرسون، النسوية والفلسفة، مرجع سابق، صـ220.

توصلن إلى أن الخبراء المعرفيين الذين يتم وصفهم بالمصداقية والقبول تتدخل في تكوينهم البنى الاجتماعية، والتي تعمل بدورها في تعزيز الوضع السياسي والاقتصادي القائم، وعلى ذلك يتم تهميش ورفض الكثير من الخبرات الأخرى التي تستحق الاهتمام.

وقد انتهت الإبستمولوجيات النسويات من خلال تحليلاتهن إلى أن العلم وفلسفة العلم لا يمكن نعتهما بالموضوعية فعلا، وهناك شك كبير في كونهما موضوعيين كما يدعيان. ولأن فحص دعاوى المعرفة يختص به خبراء فرديون وهم المسؤولون عن التحقق والمصداقية، فسوف يكون من الأفضل فهم عوامل اكتساب المعرفة ليس كخبراء فرديين بل كمجتمعات من الباحثين. وانطلاقا مما سبق فإن مسألة خلوها من القيمة ووصفها بالحيادية القيمية غير صحيح، لأنها تعكس اهتمامات العارف ومصالحه، ولتحقيق الموضوعية يأتي بقبول الاختلاف في المجتمع المعرفي، ومن ثم تتوفر أعلى درجة من الموضوعية.

ويمكن اعتبار نظرية المعرفة النسوية عبارة عن مجموعة من المواقف النسوية تجاه نظرية المعرفة وليست مدرسة محددة أو نظرية معينة بدقة، ولكنها مجرد مواقف متعددة ومتنوعة بتعدد وتنوع النظريات حول المعرفة، وحتى وقت قريب لم يكن معترف بها في الأوساط الأكاديمية حتى. ولكن يمكننا بشكل عام أن نقول إنها «النظرية التي تدرس تأثير الجنوسة على عملية إنتاج المعرفة، ومعلمها الأساسي هو الافتراق عن الأسسية». وتؤكد ليندا ألكوف وإليزابيث بوتر في مقدمة كتابهما عن «الإبستمولوجيات النسوية» على عدم تحديد معنى المصطلح بدقة فتقولان: لقد استخدمت المنظرات النسويات المصطلح بشكل مختلف للإشارة إلى «طرق المرأة في المعرفة» أو «خبرة المرأة» أو ببساطة «معرفة المرأة»، وكلها غريبة عن الفلاسفة المهنيين ونظرية المعرفة التقليدية، أي أنه «غريب على نظرية المعرفة بشكل عام»[1] وهذا ما كان من دواعي رفضها في البداية كنظرية بديلة أو براديم جديد للإبستمولوجيا.

(1) Linda Alcoff and Elizabeth Potter, Introduction: When Feminisms Intersect Epistemology, In: Feminist Epistemologies, Linda Alcoff and Elizabeth Potter (ed), Routledge, New York and London, 1993, (P1 - P14).P1.

ويشيع في الإبستمولوجيا النسوية الاهتمام بقضية الجنوسة ووضعها في الاعتبار في التحليل المعرفي، وكذلك موقع الذات العارفة. وتؤكد النسويات على الدوام أن العارفين طرف مهم في إنتاج المعرفة، يتأثرون بها وتتأثر بهم، وأن العلاقات الاجتماعية التي يتشكلون فيها والتي في الغالب تقوم على التمايز الطبقي تؤثر أيضا. وعليه، يجب الوضع في الاعتبار كلا من العارف والسياق التاريخي والثقافي وكذلك المشكلات المعرفية المطروحة مثل الموضوعية والعقلانية وكيف يمكن فهمهم. وتقول لينـدا ألكوف وإليزابيث بوتر في نفس الموضع أن: قد أصر التحليل النسوي في الفلسفة، كما هو الحال في التخصصات الأخرى، على أهمية وخصوصية سياق النظرية، وهذا أدى بالعديد من الإبستمولوجيات النسوية إلى التشكيك في إمكانية أن تكون هناك طبيعة محددة وعالمية للمعرفة؛ لأن هذا يستتبع بالضرورة إهمال وضع العارفين والسياق الاجتماعي لهم»[1]. وهذا بالطبع مخالف لما هو سائد في الإبستمولوجيا السائدة والتي تقوم أساسا بوضع شروط عامة وعالمية تنطبق على المعرفة في كل زمان ومكان.

بالإضافة إلى ذلك، تفترض نظرية المعرفة النسوية أن الطرق التي يكون بها العارفين معرفتهم وتتشكل لديهم معاني مفاهيم مثل التبرير وجمع الأدلة والبرهنة، هي موضوعات مهمة لنستطيع فهم المشكلات المعرفية مثل 'الموضوعية' و 'العقلانية'. وانحصر عمل النسويات في الإبستمولوجيا على تغيير مفاهيم الموضوعية والنزاهة والحيادية، وتعددت في ذلك التفسيرات والتأويلات حسب خصوصية وموقع كل باحث أو باحثة.

وتأتي لورين كود لتقدم طرحا متميزا للإبستمولوجيا النسوية، ولكن علينا أولا أن نتفق على استخدام مصطلح «الإبستمولوجيا السائدة»[2] بدلا عن المصطلح المتداول وهو

(1) Ibid.P1.

(2) تم تفضيل مصطلح السائدة هنا ليس من باب المعارضة والسلام، ولكن كلمة السائدة تعني ما أرادته لورين تحديدًا، وهو ألا يتم تجاهل الإبستمولوجيا الموجودة فعليًا وأن على النسويات أن يعلن عن الإبستمولوجيا النسوية كجزء مكمل أو تطوير لما هو سائد. تطوير وليس رفض، حتى لا يتم رفضهم ومحاربتها في البداية على الأقل.

«الإبستمولوجيا التقليدية» أو «الإبستمولوجيا الكلاسيكية»، والتي تشعرك وكأنها قد عفا عليها الزمن ولا يصح الحديث عنها أو ما نقول عنه أنه أصبح «موضة قديمة»؛ وذلك لأن الإبستمولوجيا النسوية عند لورين تحديدا لا ترفض الإبستمولوجيا التقليدية هذه ولا تلغيها، ولا تعتبرها شيئا لابد من التخلص منه، و إنما هناك طرف مهم ناقص يجب وضعه في الاعتبار، ولابد من اعتبار الإبستمولوجيا النسوية مرحلة تطورية للإبستمولوجيا السائدة حتى يتم قبولها للبحث والتحليل من قبل الإبستمولوجيين التقليديين. والإبستمولوجيا النسوية، كأي فرع من فروع البحث، ينشأ و ينمو و يتطور، ولكنها كانت التطور الأكثر ثورية والذي نقل الإبستمولوجيا نقلة نوعية فتحت لها الكثير من مجالات العمل، وطرحت أمامها العديد من الأسئلة الجديدة والجادة.

ثانيا: الإبستمولوجيا النسوية في رحاب لورين كود

ماذا تعني إذن الإبستمولوجيا النسوية؟ وما الفارق بينها و بين الإبستمولوجيا السائدة لدى لورين كود؟

تبدأ لورين بسرد تاريخي لتتبع بداية التساؤل بخصوص نظرية المعرفة، فترجع إلى ما يزيد على الألفي عام حينما قدم أفلاطون في محاوراته (الجمهورية، مينو، وثيبتيتوس) وطرح تساؤل كيف نعرف؟ وهل نحن نعرف شيئا أساسا؟ أصبحت هذه التساؤلات فيما بعد مركز عمل الفلسفة الغربية، وفي القرن العشرين حيث قامت الفلسفة الأنجلو أمريكية بتحليل موضوعات المعرفة والتكفل بوضع الشروط اللازمة لإنتاج المعرفة عموما، انحصر المجال البحثي في نظرية المعرفة في وضع الأدلة والبراهين التي تثبت صحة النظرية ودحض آراء الشكاك. وفي سبعينيات القرن العشرين قامت النسويات وفلاسفة ما بعد الاستعمار بتحليل المعرفة القائمة، ومدى احتمالية أن الفلسفة الأنجلو أمريكية تستطيع وضع شروط وضوابط عامة للمعرفة من الأساس، فتساءلن لماذا تم الاهتمام فقط بموضوع المعرفة ولم يسأل أحد لمن المعرفة أو من يستطيع أن يعرف؟ وقمن بالتالي بوضع عنصر الجنوسة في الحسبان وتقديم تحليلات مختلفة للمفاهيم الأساسية في المعرفة المطروحة قبلا،

وهي العقل والموضوعية والنزاهة والحيادية، والتي تكشف عن الهيمنة والسيطرة التي تؤسس لها الإبستمولوجيا السائدة، وكيف تتدخل فيها السلطة والامتيازات والمصالح المكتسبة.

وتؤكد لورين بأن الإبستمولوجيا السائدة تعني بوجود شروط عامة للمعرفة أن تكون هذه الشروط عالمية ومحايدة، مما يعني ممارستها للقهر المعرفي واستبعادها للآراء الأخرى وفرض هذه الشروط على الشعوب، ومن ثم فالإبستمولوجيا على هذه الشاكلة تعد معرفة استعمارية، وهذا ما سوف توضحه بالتحليلات والأدلة فيما بعد.

وتقدم لنا لورين في الموسوعة الفلسفية المتخصصة في مصطلحات الفلسفة النسوية - والتي تعد بمثابة إسهامًا عظيمًا في مجال البحث النسوي - تحليلات لمصطلح الإبستمولوجيا وكل المصطلحات المرتبطة بها، كما تعرض، هي ومجموعة رائعة من الكاتبات، للعديد من المصطلحات والأفكار الشائكة في الإبستمولوجيا السائدة والإبستمولوجيا النسوية، ومن خلال مؤلفاتها قامت بتحليل الإبستمولوجيا النسوية أيضا كبديل للإبستمولوجيا المعهودة، وانطلقت من خلال هذا النقد في تقديم رؤى جديدة تعمل على تدعيم أوصال الإبستمولوجيا النسوية لتمسي من الدقة والإحكام بحيث تصمد أمام الآراء الناقدة لها.

في البداية تعرف لورين الإبستمولوجيا النسوية على إنها: «نظرية للمعرفة تبحث في طبيعة وظروف إنتاج المعرفة، حيث يُقيم الإبستمولوجيون التقليديون مصادر الأدلة والتحقق لنقد الاعتقادات المبررة ودعاوي المعرفة وطرق دحض الشكاك. أما الإبستمولوجيا النسوية، فهي تهتم بنفس القدر بتحليل طبيعة وموقع الذات العارفة وتأثير الجنوسة على إنتاج المعرفة»[1]

وانطلاقا من هذا التعريف فإن الإبستمولوجيا النسوية أكثر دقة وموضوعية في وصف وتفسير إنتاج المعرفة لأنها ترصد الظاهرة من كل جوانبها ولا تهتم بجانب على حساب الآخر كما تفعل الإبستمولوجيا السائدة، كما أنها أكثر قربا من حياة البشر لأنها تحول نظرية المعرفة من مجرد موضوع أكاديمي مجرد وخاص بالفلاسفة فقط إلى موضوع حيوي

(1) Code. L. Epistemology, Feminist, In: Encyclopedia of Feminist Theories.p170.

ومهم للحياة والواقع والبشر، وهذا ما تشير إليه لورين باستمرار من أهمية الواقع العملي على الواقع النظري، والذي لابد من أن يكون هو المنطلق والأساس في الرؤية النظرية ويسترعي اهتمام الجميع.

وإذ ينصب اهتمام الإبستمولوجيين على تقييم الأدلة والبراهين الموضوعية ونبذ الذاتية حتى نصل إلى معرفة محايدة. ينصب في المقابل اهتمام لورين والنسويات على إثبات العكس: إن الذاتية، أي الذات العارفة، لا تنفصل عن الموضوع، وأنه وعلى العكس تماما، يؤدي فصل الذات عن الموضوع إلى إنتاج معرفة قاصرة، ووضع الذات في الحسبان هو جزء مهم ورئيس للموضوعية المنشودة. وربما ما أكد صحة تحليلاتهن هذه، تلك الدراسات السيكولوجية الحديثة في ميدان علم النفس التطوري، والتي تؤكد العلاقة المتبادلة بين الباحث والموضوع المبحوث بشكل يصعب فصله؛ لأن كل منهما جزء من الآخر يؤثر فيه ويتأثر به. وليست محاولة الفصل المزعومة من قبل الإبستمولوجيين التقليدين سوى عملية بتر متعمد لتشوية المنتج المعرفي النهائي الذي يتوافق مع رغباتهم كذكور أولا، وكمعرفة مهيمنة ومسيطرة ثانيًا.

وحاولت لورين تحليل الوضع الإبستمولوجي الراهن لمعرفة مبرراته ومنطلقاته، وقدمت في كتابها «ماذا يمكنها أن تعرف؟» نقدا وتفنيدا للإبستمولوجيا السائدة متخذة من الإبستمولوجيا النسوية تطويرا عنها، ولكنها لم تكتفِ بعرض الإبستمولوجيا النسوية فقط، بل نظرت إليها أيضا نظرة نقدية ووجهت العديد من الانتقادات للنسوية. ويعد كتاب لورين هذا من الكتب المهمة التي عملت فيه على إعادة هيكلة نظرية المعرفة من جديد.

وتذهب لورين إلى أن نظرية المعرفة القديمة تخفي علاقات القوى التي تولد وتشكل المعرفة، وتمسكت بأن من يصنع المعرفة غير ذي صلة بها. وقد لاحظت أنه في الواقع الباحث أو العارف الموضوعي النزيه المهتم محدد جدا، وهو العارف المهتم بتقديم تصورات للرجل الأبيض المتمرد، وهذا هو التيار الذكوري في المعرفة، ويتم هذا تحت ستار إنتاج معلومات محايدة. والتابعون لمثل هذه التصورات، ليسوا قطعا من نخبة العارفين، وإنما هم يجعلون

ظـروف وشروط صناعة المعرفة غير مرئية أو غير معروفـة، في محاولة لعدم إتاحة الفرص لنقدها وتفنيدها لأنهم يعلمون أنها لن تصمد أمام النقد.

وقد اسـتطاع الإبسـتمولوجيون التقليديون إخفاء الخـبرة الفردية والتقليل من شـأنها لتجريـد موضوع البحث وفصلـه عن ذات الباحث، وتجاهلوا العلاقـة المتبادلة بين الذات والموضوع، وربما هذا لا يعد حسـما للجانب الأنثوي فقط وإنما التقليل من الخبرة الفردية ووصفهـا بأنها مجرد رأي لا يسـمو إلى درجـة المعرفة- يعد غضًّا من قيمة الإنسـان في مقابل الاعتـداد بالرصـد وأدوات الرصد والآلة، وهو تفضيل لقيمة الآلة على قيمة الإنسـان. وقد يكـون هـذا التفضيل من العوامـل التي انتهت بنـا إلى أزمة العلاقة بين الإنسـان والآلة في العصر الحديث، الدقة والموضوعية في مقابل الشعور الإنساني والذات المتفاعلة في الموضوع أصبحت معادلة صعبة، وهذا ما سـوف تنطلق منه لورين أيضا في عرضها لمشكلة الإنسان مع البيئة في كتابها عن التفكير البيئي.

ويرفض الإبسـتمولوجيون التقليديون وضع القيم الاجتماعية والأخلاقية في الحسـبان عند إنتاج المعرفة لأن ذلك، في زعمهم، يضعف من النظرية. ولكن جاء نقد النسويات من خلال دراسـة تاريخ تطور الإبسـتمولوجيا ليكشـفن مظاهر المركزية الذكورية وسيطرة الرجل الأبيض على إنتاج المعرفة، وليدخلن القيم للمحتوى المعرفي. وفي تتبع للواقع المعرفي، توصلن إلى أنه قد «أتي الاعتراض على التعبير عن وضع القيم داخل المحتوى المعرفي من لدن الوضعية المنطقية، فهم لا يهتمون بمشاعر الآخرين، ولا يرون أن لها أهمية واقعية»[1] وهذا ما ألهم النسـويات ليعملن على إعادة قراءة التراث واسـتنطاقه مع فهم السـلطة السياسـية وتحديد الخطاب المناسـب للتعامل معها، فهن يحاربن على جبهات متعددة محاولات أن يثبتن وجود وإسهام للمرأة في إنتاج المعرفة وبناء الحضارات.

وقـد وضعت لورين في كتابها «ماذا يمكنها أن تعرف؟» اسـتراتيجية للنسـويات حتى يحققن ما يصبين إليه من خلال خطوات مدروسة محكمة، فهي تقول: «النسويات يستطعن

(1) Ibid, P171.

أن يكن إبستمولوجيات، والعكس صحيح أيضا، لذلك يتوجب على النسويات فهم المشروع الإبستمولوجي جيدًا، حتى يكن في موقع يسمح لهن برؤية المركزية الذكورية، وفهم العواقب السياسية التي أدت إلى السيطرة، وهن في حاجة إلى التحاور مع التراث من أجل ربطه وتحليله للوصول إلى فهمه وتحديد نقاط القوة والضعف فيه. وهن في حاجة إلى تطوير خطابهن السياسي حتى يتمكن من استرداد مكانتهن في إنتاج المعرفة في الحياة الإنسانية»[1].

لقد ربطت الفلسفة الغربية العقل بالرجل، على حين ربطت العواطف والمشاعر بالمرأة، كذلك فهي قد ربطت بين المعرفة والموضوعية المحايدة بالعقل وفصلت بينها وبين المشاعر والعواطف، ومن ثم يصير من الطبيعي إنتاج المعرفة للرجل من دون المرأة. ولكي تعيد المرأة مكانتها كعارفة، عليها أن تعيد إنتاج الخلفية المعرفية التي ترد بدورها للخبرة الفردية والمشاعر دورها في المحتوى المعرفي. فعملت النسويات على الاستفادة من المجالات الإبستمولوجية مع التطوير فيها ليضعوا لنا نظرية جديدة في المعرفة تختلف عن السائدة، وأصبحت «نظرية المعرفة النسوية تشتمل على التجريبية النسوية والفلسفة النسوية للعلم ونظرية المعرفة النسوية المبنية على الموقف المعرفي ونظرية المعرفة الاجتماعية النسوية - وهذه التخصصات تكون معا هذا التقسيم الفرعي المتميز في سياق تحدي نظرية المعرفة في شكلها التقليدي المتعارف عليه»[2]

وكيما تستطيع لورين طرح رؤيتها النسبوية - الثورية - على ساحة الإبستمولوجيا النسوية، عمدت إلى تعهد مكامن هذه النسبوية في مظاهر الإبستمولوجيا النسوية، تلك التي تحرص دوما على تأكيدها - المشوب بالتوجس والارتباك - على نبذ النسبوية الإبستمولوجية. وبدورنا، وإذ نود إبراز منطقية طرح لورين الثوري في النسبوية الإبستمولوجية، علينا - ومشيا على درب لورين كود - تعقب هذه المواطن من النسبوية القابعة في قلب ومركز الخطاب الإبستمولوجي النسوي... برغم كل محاولات النسويات للبرء منها.

(1) Code. L. What Can She Know? P314 - 315.

(2) باميلا سو أندرسون، النسوية والفلسفة، مرجع سابق، صـ223.

ثالثا: النسوية من معالم الإبستمولوجيا النسوية

تدرس الإبستمولوجيا النسوية إذن علاقة العارف بموضوعه ومدى تأثير الجنوسة على عملية إنتاج المعرفة. وهنا نتساءل ما إذا كان بالإمكان طرح تساؤلات من قبيل: هل بالإمكان قيام نظرية للمعرفة أنثوية وأخرى ذكورية؟ هل من الممكن تناول النظرية من زاوية الفصل بين الجنسين؟ هل الإدراك المعرفي للمرأة يختلف عنه عند الرجل؟

نعم يمكننا ذلك، والموضوع مطروح بشكل موسع وكبير في علم النفس التطوري وعلم النفس المعرفي، فهناك فوارق في الإدراك والقدرة على الاستيعاب وطريقة تحصيل المعلومات. ومن ثم تختلف معرفة الذكر عن معرفة الأنثى لاختلاف آليات كل منهما في الحصول على المعلومات والنقد والتحليل. وليس هذا فحسب، وإنما أيضا تختلف بين أفراد الجنس الواحد لأسباب وظروف مختلفة، وتؤكد ذلك وتوضحه النسبوية الإدراكية التي تقوم على فكرة اختلاف الإدراك من فرد لآخر لأسباب متعددة، وتعد جزءًا مهمًا من النسبوية المعرفية التي يقوم عليها البحث هنا؛ فالنسبوية الإدراكية هي «التي ترى أننا لا نعيش في عالم واحد موضوعي، بل نعيش في عوالم مختلفة، ذلك لأن العالم الحقيقي، فيما يقول سابير Sapir، هو ما يتم بناءه من خلال عادات وتقاليد واعتقادات جماعة ما، فنحن نرى ونسمع، وبطريقة أخرى نخبر على نطاق واسع ما نعلمه من خلال مجموعة من الاعتقادات التي تحدد لنا تفسير العالم»[1] فكيف تكون هناك حقيقية واحدة موضوعية عن معرفة هذا العالم؟!

وقد ثار افتراض مهم انطلاقا من هذه الاختلافات الإدراكية بين الرجل والمرأة - عمل على فتح باب جديد عن جنوسة المخ وإثارة سؤال: هل توجد اختلافات جنوسية واضحة أم لا؟ تحلل الدكتورة ميليسا هاينز[2]، وهي على معرفة عميقة بموضوعات الوراثة والمحددات

(1) نقلا عن: خالد قطب، أنسنة العلم، مقال جديد في العقلانية العلمية، نيوبوك، القاهرة، الطبعة الأولى، 2018، صـ218.

(2) ميليسا هاينز هي عالمة أعصاب وأستاذة في قسم علم النفس بجامعة كامبريدج. وهي تدرس تطورات=

البيولوجية والاجتماعية للفروق بين الجنسين لتوضح لنا موضوع جنوسة الدماغ، فنجدها تقول في كتابها المهم جدًا والذي لاقى رواجا كبيرًا عند نشره وهو تحت عنوان «جنوسة الدماغ 2004 «Brain Gender: إنه على الرغم من الاختلافات والفروق البادية بين الجنسين بيولوجيًا ونفسيًا، والاختلافات في الدماغ والهرمونات وطريقة عملها والإدراك والعمليات الفكرية، إلا أننا في النهاية نجدها ليست بالشكل المتوقع الفاصل والحاد الذي يظنه الكثيرون، ولكنها في النهاية تؤول إلى لا شيء، فقد جرت العادة على وصف الفروق بين الرجال والنساء، والصبيان والبنات، والذكور والإناث، على أنها فروق جنوسية إذا ما كانت المحددات ذات طبيعة اجتماعية، وفروق جنسية إذا ما كانت المحددات ذات طبيعة بيولوجية. لكن عند قراءة هذا الكتاب يتوصل المرء إلى الرأي المعاصر السائد في الأوساط العلمية والاجتماعية من أن هذه الفروق هي في الواقع غير ذات معنى»[1].

وقدمت دكتورة ميليسا دراسة مفصلة توضح فيها الفروق الجنسية في دماغ الإنسان وانعكاس تلك الفروق والاختلافات على سلوكه وعلى بعض القضايا الأخرى كحجم الجمجمة والذي قد تم تجاوزه كادعاءات علاقة حجم الجمجمة بالذكاء وأن حجم دماغ الرجل أكبر فيعني ذلك كونه أكثر ذكاءً، أمست هذه الآراء تمثل أسطورة، ولكن تؤكد ميليسا على أن هناك فروق جنسية في بعض أجزاء من الدماغ وخاصة تلك التي تنظم الوظائف التي تظهر فروقًا جنسية فعلا، وهنا تقول ميليسا: «الفروق الجنسية قد تعكس التأثير العام لعامل أو لعدد من العوامل (مثل الهرمونات، الخبرات المبكرة) التي تؤثر في الجوانب الكثيرة من التمايز الجنسي»[2] وتمثل دراسة دكتورة ميليسا النتائج الحديثة التي توصلت إليها التجارب العلمية الحديثة، وذلك في كتابها «جنوسة الدماغ».

= جنوسة الدماغ، وتركز بشكل خاص على تطورات المخ والسلوك في مرحلة قبل وبعد الولادة، ونشرت لها جامعة أكسفورد كتابها المهم والشهير «جنوسة الدماغ» عام 2004.

(1) ميليسا هاينز، جنوسة الدماغ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 353، يوليو 2008، من مقدمة بقلم المترجمة، صـ7.

(2) المرجع السابق، صـ253.

وتصل بنا تحليلات ميليسا إلى الرأي المعاصر السائد في الأوساط العلمية والاجتماعية من أن هذه الفروق لا تمثل شيء في النهاية، فالفروق البيولوجية ترتبط مع الفروق الجنوسية/ الجندرية، ولا أحد منفصل عن الآخر، فحتى الهرمونات تتأثر بالبيئة، فلا معزل لأحدهما عن الآخر، وهذا ما أدى بالنسويات في النهاية إلى اعتبار كلمة «الجنوسة» تحتمل الفروق الاجتماعية والبيولوجيا معا، وحتى لورين كانت في البداية تفصل بينهما ولكن في النهاية أقرت بنفس النتيجة.

و إلى هنا نأتي إلى بعض أهم العناصر المتصلة بالإبستمولوجيا النسوية والتي ينبغي معالجتها[1]، وهي المقولات المعرفية للإبستمولوجيا السائدة التي تم نقدها وتحليلها لتقديم بدائل مختلفة، فنجد:

عناصر المعالجة:

1- نقد العقلانية.

2- نقد الثنائيات.

3- العارف المتموضع.

4- المعرفة المتموضعة.

5- تحييد القيم.

هذه النقاط هي ما قامت به الإبستمولوجيات النسويات في نقدهن للإبستمولوجيا السائدة، وهي العلامات الفارقة بينهما.

1 ـ نقد العقلانية:

قدمت النسويات انتقادا للعقلانية وصورها المتعارف عليها في الفكر التقليدي، وكان من بين الانتقادات القوية في هذا الموضوع تلك التحليلات التي قدمت العقلانية بوصفها

(1) وذلك بعدما بلورنا ما يمكن عده أهم عنصر في الإبستمولوجيا النسوية، وهو: دخول الذات العارفة كعنصر أساسي فيها، والمفضي بدوره إلى بلورة مفهوم النسبوية، ركيزة الركائز في الإبستمولوجيا النسوية.

استعارة ذكورية منشأها الرجل. فنجد العمل الذي قامت به سوزان بوردو Susan Bordo (1947 -) (1990) وجينفييف لويد Genevieve Lloyd (1941 -) (1984) الطرق التي تعمل بها استعارات الذكورة في بناء المثل العليا للعقلانية والموضوعية. استنادا إلى المناقشات النسوية لموضوع نظرية العلاقات (بوردو) ودور التجسيد الرمزي والاستعارة في المشاريع المعرفية الحديثة، فإن كلا من لويد وبوردو يجادلان بأن عمليات الخيال الرمزي متورطة في ميتافيزيقا الذاتية والموضوعية، وفي توصيف المشاكل المعرفية التي تتبعها تلك الميتافيزيقا. ونتيجة العمل الذي قامت به هؤلاء المؤرخات النسويات، هو أن المثل العليا للعقل والموضوعية والاستقلالية وعدم الاهتمام التي تعمل في افتراضات حول الاستقصاء، فضلا عن فكرة أن المشاكل 'الدائمة' للمعرفة هي محايدة بين الجنسين، و إلى العلاقات الجنسانية أيضا»[1]

وهذا بدوره فتح الباب إلى مفهوم جديد، وهو مفهوم الاستقلالية أو الاستقلال الذاتي Autonomy، وقد قدمت له لورين تحليلا خاصا في موسوعة النظريات النسوية التي حررتها، ورجعت لبداية ظهور المصطلح عند الفيلسوف الألماني كانط والذي عنى به أن يسير الفرد في سلوكه على قانون يفرضه بنفسه وبإرادته الحرة العاقلة، فالاستقلال الذاتي في الأخلاقيات يعني استقلال الإرادة، وهو يرد السلوك إلى نزعات وأفكار نابعة من الذات لا من سلطات خارجية، مما يدعم من قوة الذاتية واستقلال العقل ويلغي التبعية والتسلط ويفتح الباب للنسبوية لتفادي كل العقبات السابقة.

وتقول لورين في هذا الصدد:

«الحكم الذاتي هو مسار متنازع عليه بالنسبة للنسويات في أواخر القرن العشرين، وتدعي الكثيرات منهن أن نموذج التنوير الغربي تمثل في «الرجل المستقل» والذي لا يمكن أن يتحقق إلا من قبل الرجال المغايرين جنسيا الذين تدير زوجاتهم الحاجات الضرورية

(1) Marianne Janack, Feminist Epistemology, In «Internet Encyclopedia of Philosophy. http://www.iep.utm.edu/fem - epis/.

في الحياة اليومية بينما هو متفرغ للتنوير. وتؤدي الممارسات الغربية في تربية الأطفال إلى رعاية الأولاد ليصبحوا رجالا يملكون استقلالهم الذاتي، في حين أنهم يروجون للفتيات ترابطا معنيا بالرعاية يحويهن في إطار عالم التضحية بالنفس، والتي تصب في النهاية في خدمة الرجال لتحقيق استقلاليتهم. وعلاوة على ذلك، فإن الاستقلال الذاتي في ارتباطاته مع الفردية الليبرالية تطور ليصبح مثالية لذاتية صارمة وموحدة، والدفاع عنها ضد الاتصالات التي تهدد الاكتفاء الذاتي: مثالية للعديد من النساء.»[1]

2 ـ **نقد الثنائيات:**

قامت النسويات بتحليل «الثنائيات» في الإبستمولوجيا وفلسفة العلم، مثل: الموضوعية/ الذاتية، ذكر/ أنثى، عقل/ جسد، مجسد/مجرد، كلي/جزئي، طبيعة/ثقافة... إلخ، فوجد أن الدافع الأساسي هو التحيز الذكوري والتقليل من أهمية المرأة كعارفة، فشكل موضوع الثنائيات جزء مهم يجب نقده وتفنيده. وسوف نتناول ثنائية (الموضوعية/ الذاتية) والتي تشكل جزءا رئيسا للموضوع - كمثال، وثنائية أخرى لا تقل عنها أهمية هي ثنائية (الطبيعة/الثقافة) التي سوف تتناولها لورين في موضوع علاقة الإنسان بالبيئة وسوف يأتي تحليلها في موضعها.

ثنائية (الموضوعية/ الذاتية): تحت مظلة المعرفة العلمية الرصينة التي تقوم على موضوعية نزيهة، تم تنحيه ذات العارف/ العارفة والمشاعر والعواطف جانبا. وكان هذا شعار العلم والعلماء إلى أن أتت الإبستمولوجيا النسوية فانصب اهتمام النسوية على مقولة «الذاتية». وانطلاقا من استفادتها من تحولات ما بعد الحداثة وحركات التفكيك الثوري، وثورتي النسبية والكوانتم، ومبدأ اللاتعين، نظرية الشواش، المنطق الغائم، الجبر اللاخطي، وغيرها من التحولات المهمة في تاريخ العلم والتي قلبت موازين العلم كافة وضربت بأعرق النظريات عرض الحائط، راجعت النسوية المفاهيم الفلسفية الثابتة وبدأت في تفنيدها، حتى تستطيع بناء مفاهيم جديدة. ومثال على ذلك الموضوعية والحيادية، فكرة

(1) Code, Lorraine, Autonomy, In: Encyclopedia of Feminist Theories,P36.

الوعي والجسد عند ديكارت حيث مثل الوعي بالرجل والجسد بالأنثى، وكيف أن الوعي يعلو على الجسد وفي مرتبة أشرف، وكذلك ميتافيزيقا أرسطو، والتي حطت من شأن المرأة وجعلتها كائنًا أرضيًا متدني المكانة.

وتذهب لورين إلى أن نظرية المعرفة السائدة تنظر إلى العارف على أنه منفصل عن موضوعه الذي يدرسه ويبحث فيه، كما أنه «العارف» قابل للتبديل والتغيير بينما موضوع المعرفة محدد وثابت. ولكنها تناقش أهمية وضع العارف مع الموضوع وتؤكد على وجود علاقة ديناميكية بينهما، وأن العارف والموضوع المعروف لهما نفس الأهمية، وهما كل متصل يعد فصله إلى موضوعية وذاتية خطأ جسيم.

«بعض النظريات النسوية تقيم الحجة على أن المجاهرة بقيمة الحيادية لا تفيد إلا كمجرد قناع يخفي التحيز الذكوري. والمسألة كما طرحتها ساندرا هاردنج[1] Sandra Harding (1935 -) هي: من منظور النظرية والبحث النسويين، فإن الفكر التقليدي هو الذي يتسم بالذاتية، وذلك في انحرافه بفعل النزعة الذكورية، وهذه دعوة النسويين على استعداد للدفاع عنها على أساس من الموضوعية التقليدية».[2]

إن إعطاء الأهمية فقط للموضوع أدى إلى قصور في نظرية الإبستمولوجيا السائدة، ومع تنحية القيم جانبا أصبح الوضع أكثر تعقيدا، وأصبحت النظرية المنتَجة بعيدة كل البعد عن الواقع الذي نشأت فيه؛ مما حدا بالنسويات بتركيز اهتمامهن على توضيح أهمية ذات العارف وأهمية الشعور والعاطفة، وأثبتن ذلك من خلال تجارب العالمات اللاتي حققن

(1) ساندرا هاردنج هي أستاذة التربية في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس. وهي محررة «الاقتصاد العنصري للعلم: العلم نحو مستقبل ديموقراطي» وشاركت في تأليف فصل في تقرير اليونسكو عن العلم في العالم 1996 عنوانه «العلم والتكنولوجيا: البعد الجنوسي» ولها كتاب مهم أيضا بعنوان «هل العلم متعدد الثقافات؟: مذاهب بعد استعمارية ونسوية وإبستمولوجية». وتعد ساندرا من أقطاب فلسفة العلم النسوية على وجه العموم والإبستمولوجية النسوية جنبا إلى لورين كود، كما أنها نحتت مفهوم «الموضوعية القوية» Strong Objectivity لحل مشكلة الموضوعية العلمية التي تقوم على عزل ذات العارف وتحييد القيم، فساهمت ساندرا في إضافة حقيقية للإبستمولوجيا النسوية.

(2) Code, Lorraine, What Can She Know? P31.

تقدما أو إنجازا في العلم، عن طريق الإنصات إلى إحساسهن أثناء ممارسة العلم، وكيف أن الإحساس والعاطفة من الممكن أن يساعدا على الوصول إلى الحقيقية.

وعن فقد العاطفة في العلم وتنحية الذات الأنثوية، قام إيان ميتروف بعمل مجموعة من المقابلات الشخصية مع مجموعة من العلماء الذين درسوا صخور القمر في رحلات أبولو، ومن خلال مناقشاته معهم توصل إلى انتفاء العنصر الأنثوي والعاطفي وكيف أن رجالا قاموا بدراسة الصخور كما تقوم آلة بعمل ما دون تدخل منها فيقول: ليس الجنس البشري، بل الرجل بجسده وروحه ونفسه هو الذي عاد ببعض من أحجار القمر الثمينة، وفي النهاية هو الذي يحلل خامات القمر. ليس للمبدأ الأنثوي أي حضور في كل هذا»[1] الجانب العاطفي والشعوري له بعد مهم في العملية المعرفية ولا يمكن تجاهله، فالنظريات الكبرى كانت في بدايتها مجرد شعور لدى الباحث، شعور بأزمة أو مفارقة أو إشكال في نظرية سائدة أو معادلة رياضية أو مفهوم علمي سائد، إنه تخمين يدور في خياله ويظل حتى يختمر وتتضح صورته؛ فالخيال والشعور أيضا يلعبان دور مهم.

ذات العارف مهمة جدًا، وتنحيتها يجعل النظرية منقوصة، والأكثر من ذلك أن الذات الواحدة يختلف نتاجها باختلاف الظروف والعوامل المحيطة، وقد وضح لنا ذلك قديما أفلاطون في محاورته عن العلم حين قال: «يمكن للشخص نفسه أن يعرف ولا يعرف الشيء نفسه، ذلك أن الإنسان ليس ذاتا واحدة بل هو عدد لا نهائي من الذوات، ولكل ذات من هذه الذوات إحساسها الفردي الحقيقي بالنسبة لها في لحظة معينة، لكن إذا لم يكن يوجد اختلاف بين الأفراد فيما يتعلق بما يحصلون عليه من حقائق لأن لكل حقيقته النسبية إلا أن هناك اختلافا في قيمة معرفتهم ومدى نفعها، ذلك لأن حال الفكرة كحال النبات لا يجوز أن يتفاوت قدر أي كائن منهما عن الآخر في الوجود بل يفوق بعضه البعض الآخر في الصحة أو في النفع»[2] إن كان ذلك يحدث للذات الواحدة فما بالنا بالذوات المختلفة!

(1) ليندا جين شيفرد، أنثوية العلم: العلم من منظور الفلسفة النسوية، ترجمة يمنى الخولي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 304، أغسطس 2004، صـ49.

(2) أفلاطون، ثياتيتوس أو عن العلم، ترجمة أميرة حلمي مطر، دار غريب، ص12.

3 ـ العارف المتموضع والمعرفة المتموضعة Situated Knowledge:

شنت النسويات نقدا للموضوعية والحيادية والقيم المجردة المُتغنى بها من قبل الإبستمولوجيين التقليديين، وأقررن بأن الذات أهم من الموضوع، وهنا ظهر ما يعرف بـ «العارف المتموضع» والمقصود به العارف بما يحتمله من خلفية حاضرة على الدوام في إنتاجه المعرفي، خلفية اجتماعية وخلفية تاريخية وخلفية ثقافية، ومن أي أرضية ينطلق وكذلك موقفه من الحياة. المعرفة المتموضعة، بمعنى أنه لكي تنتج معرفة يجب عليك أن تدرك جيدًا وتضع في الحسبان «العارف/العارفة». من أي هيئة اجتماعية ينطلق؟ ومن أي موقع يقوم بعمله؟ ومن أي خلفية ثقافية جاء؟ فهذه هي التي تحدد الموضوعية وليس فصلهما. «إن إبستمولوجيا الموقعية النسوية هي نوع فريد من فلسفة بناء المعرفة التي تتحدانا في سبيل: 1) رؤية وفهم العالم عبر عيون وتجارب النساء المقهورات، 2) تطبيق رؤية ومعرفة النساء المقهورات على العمل الاجتماعي والتغير الاجتماعي. وتتطلب إبستمولوجيا الموقعية النسوية التحام المعرفة بالممارسة، فهي تجمع بين كونها نظرية لبناء المعرفة ومنهجا للبحث - أي مدخل لبناء المعرفة ودعوة للفعل السياسي»[1] وهنا يتبين لنا أن الانطلاق من الواقع الاجتماعي للنساء المقهورات هو البديل الأمثل لبناء معرفة بديلة ترد الاعتبار لهن، ونستطيع من خلالها التغيير الاجتماعي والكشف عن الأسباب التي أدت إلى إقصائهن سابقا، فهم حقيقة الفصل بين الذات والموضوع والعمل على إصلاحه، فكل عارف له مجموعة من الامتيازات التي من خلالها يؤثر في عملية المعرفة تأثيرًا مباشرًا. فعلى سبيل المثال، كوني امرأة بيضاء من أسرة متوسطة، مسلمة، من العالم الثالث يتيح لي امتيازات تختلف عن امرأة، سوداء، مطلقة، من وسط أفريقيا. يجعلني كل ما أمتاز به أمتلك معرفة تختلف عن الأخريات، فيكون محيطنا المجتمعي والثقافي عامل مؤثر كبير.

(1) شارلين ناجي هيسي - بايبر باتريشا لينا ليفي، مدخل إلى البحث النسوي ممارسة وتطبيقا، ترجمة هالة كمال، المركز القومي للترجمة، العدد 2356، الطبعة الأولى، 2015، صـ 99.

وتناقش لورين كود من خلال كتابها: «ماذا يمكنها أن تعرف؟» What Can She Know? النظرية النسوية وبناء المعرفة Feminist Theory and the Construction of Knowledge (1991)، وهي أطروحة لورين كود الأساسية، تتناول لورين موضوع جنوسة العارف في فصل كامل من هذا الكتاب وتعقد التحليلات حول جنوسة العارف هل هي مهمة من الناحية المعرفية؟ وفي البداية توضح أن التمييز على أساس التمايز الجنسي خاطئ وهو ما أدى إلى إنتاج الإبستمولوجيا السائدة التي قامت على تفكير الرجل الأبيض فقط، وتجاهلت تماما العارف/العارفة في مقابل الحيادية والموضوعية، وتنحية القيم أيضا أو حيادية القيم.

وتؤكد لورين على أن العارف مسؤولا عن المعرفة التي ينتجها، بل ويشكلها، وهذه المسؤولية تقع على شقين: المسؤولية المعرفية والمسؤولية الأخلاقية. ووضعت اهتماما خالصا لخبرات النساء، بل ليس النساء فقط، وإنما المهمشين والمقهورين هما أيضا ينتجون معرفة تحمل طابعا اجتماعيا لهم وتعبر عنهم. وأكدت لورين من خلال طرحها على أهمية الذات العارفة وأهمية الموقع الذي تنطلق منه في عملية بناء المعرفة وهذه الأهمية تؤدي بنا إلى قبول التنوع والتعدد في المعرفة مما يصلنا بنا إلى النسبوية التي تعالج مثل هذه الافتراضات وتعرض لها.

وقد طرحت لورين مفهوم الإبستمولوجيا النسوية في موسوعتها الشهيرة في المصطلحات النسوية والتي عملت فيه على نقد الاتجاه السائد في المعرفة والذي يرى أن الإبستمولوجيا هي التي تبحث في طبيعة وشروط إنتاج المعرفة، وأن المهمة الأولى والأساسية للإبستمولوجيين هي دحض أدلة الشكاك وتقوية دعائم النظرية القائمة والذي تمثل بشكل كبير في كونها «اعتقاد صادق مبرر»، فعمل الإبستمولوجيون على جعل المعادلة السابقة قوية وإضافة كل ما من شأنه تدعيمها ودافعوا عنها أمام أراء المتشككين متناسين تمامًا أن أساس النظرية به خلل، وهو قيامه على فكر أحادي يمثل فقط وتحديدا الرجل الغربي الأبيض.

ومما سبق تؤكد لورين على أن الإبستمولوجيات النسويات عليهن أن يوضحن أن المعرفة ليست فقط اعتقادا صادقا مبررا، وليست مهمتها تقتصر على الفلاسفة فقط، وينطلقن

في البحث من خلال حياة النساء والمهمشين والأخذ في الاعتبار الخبرة الفردية والموقع والموقف والذات العارفة، ومن خلال بحثهن في تاريخ الإبستمولوجيا السائدة يستطعن أن يكشفن عن أسباب غياب المرأة في عملية إنتاج المعرفة وكشف مكامن السلطة الذكورية وسلطة الرجل الأبيض ويتعلمن كيف يكنّ في موقع يسمح لهن بأن يكن عارفات، ومن ثم يمكنهن من إنتاج معرفة بديلة، تختلف عن تلك السائدة وتكون أكثر عدلا. وحددت لورين مجموعة من معالم هذه النظرية في الآتي:

كونها معرفة متموضعة، الخبرة الفردية، الذات العارفة، الآخر المهمش، إدخال القيم، الموضوعية القوية.[1] ومن ثم إنتاج معرفة نسوية نسبوية.

4 ـ القيم وعلاقتها بالإبستمولوجيا:

الحيادية القيمية Value - neutrality، أو استبعاد القيم Value - free كلها دعاوي من ذريعة العلم الفيزيائي والذي يحرص على أن يفصل العارف/ العارفة عن موضوعه وينحي القيم جانبًا، حتى يضمن بقاء الموضوع مجردا بعيدا عن العارف/العارفة، من أجل تحري أعلى درجات الموضوعية العلمية. وتكون محصلة المعرفة المنتجة بعيدة عن الواقع وأكثر ظلما للفئات التي لن تجد من يمثلها داخل النظرية وتظل مهمشة، وعليه صبت النسويات اهتمامهن على القيم في النسوية ضد الطبقية والعرقية والتمييز الجنسي، وليس هذا فحسب، وإنما أعلنوا: «أن تكون نسويا، فهذا يعني أن تنتج بحثا محملا بالقيم»[2] وأكدت على ذلك أيضا دونا هاراواي[3] Donna Haraway (1944 -) بأن تنحية موقع العارف والتشديد على الحيادية القيمية هي ذريعة الرجل الأبيض وهي خير تمثيل على المركزية الذكورية في إنتاج العلم والمعرفة، وهي من استشهدت بها لورين كود في هذا الموقع. وأكدن على أن القيم جزء أصيل يجب مراعاته.

(1) Code. L. Epistemology, Feminist, In: Encyclopedia of Feminist Theories, P170.

(2) Ibid, P171.

(3) عالمة أحياء وفيلسوفة وتشغل منصب أستاذة ببرنامج تاريخ الوعي بجامعة كاليفورنيا، بالولايات المتحدة ولها العديد من المؤلفات المهمة التي تدور حول النسوية والتكنولوجيا.

رابعًا: الميثودولوجيا النسوية كمنهج نسبوي

لكل توجه فكري أو مذهب أو نظرية، منهاجها الخاص الذي تفرضه طبيعة هذه النظرية أو ذاك التوجه وكذلك طبيعة الموضوعات التي تتناولها، والفكر النسوي واحد من هذه التوجهات. ولما كان هذا الفكر النسوي نسبوي النزعة، لزم أن يكون منهجه أيضا نسبوي المنحى، ينطلق من أرض الواقع و يعتبر السياق والمنظور وزاوية الرصد... إلى آخر ما سوف نبينه في موضعه. ولا يسعنا بداية سوى محاولة تحديد مفهوم المنهج، ومن بين هذه التحديدات نسوق ما قامت به ساندرا هاردنج في هذا الصدد. فلقد عملت ساندرا على تحديد المصطلح بشكل دقيق في البداية فقالت: «إن علينا أن نفرق بين منهج بحث Research Method وهو يعني طريقة أو أسلوب لعملية جمع الأدلة. والمنهجية Methodology، وهي نظرية وتحليل للطريقة التي يجري بها البحث.[1] كما أكدت هاردنج على أن الباحثات النسويات عليهن أن يوضحن جيدا كيف تم استبعاد مشاركة وخبرة النساء في النظريات الكلاسيكية.

ولكي نفهم الميثودولوجيا النسوية Feminist Methodology جيدًا، علينا أولا أن نفرق بينها و بين الميثودولوجيا التقليدية وخصوصا الوضعية، لتركيز النسويات عليها في تحليلاتهن. فالميثودولوجيا الوضعية تقوم على أساس أن المنهج العلمي قوامه الفرض والملاحظة، والنظريات العلمية قائمة على التجريب، والعالِم الحق هو الذي ينعزل عن العالَم في معمله لكي ينتج لنا علما موضوعيا محايدا. و ينبغي تنحية ذات العارف وظروفها حتى لا تؤثر على عملية البحث أو تتدخل في نتائجه. ومن هنا تشدد الميثودولوجيا السائدة على أهمية الموضوع أكثر من الذات العارفة وكذلك أهمية الموضوعية وحيادية القيم.

و في المقابل، تؤكد الميثودولوجيا النسوية أن الطريق إلى منهج علمي متكامل لن يتأتى بما تفرضه وتقره الميثودولوجيات السائدة، خاصة وأنها تنتهي إلى نتائج إقصائية تنتهي إليها دراسة الرجل الغربي الأبيض تحديدا، وتستخدمها كعينة بحثية قياسية معيارية تنطلق

(1) Harding .S. is there a Feminist Method? In: Harding. S. (ed) Feminism and Methodology: Social Science Issues, Indiana University Press, (P1 - P14), P2 - P3.

منهـا إلى تعميـم عالمي، ومن ثم فهو منهج إقصائي تميزي وظالم لخبرات المرأة والمهمشـين على السواء، ولن تكون نتيجة تطبيقه ملائمة للبحث الذي يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة وتحديد رؤية صحيحة للواقع؛ ولذلك تعتبر خبرة المرأة مهمة لكي تكون المعرفة المنتجة أكثر فاعلية وواقعيـة وتكامليـة ولها قوة تأثيريـة[1]. وقد قدمت النسـويات أيضا انتقادا حـادا لمنهجية البحث الوضعي الذي ينطلق من افتراض أن الواقع معد للبحث وسهل تتبعه ودراسته، ولكن «هناك حاجـة لمراجعة موجزة لمنهجية البحث الوضعية. بافـتراض وجود حقيقة موضوعية يمكن اكتشافها منطقيا وعقلانيا من خلال المراقبة، تحدد متطلبات عملية البحث»[2]

وحتـى هـذه الحقيقـة مازالت في موضـوع البحث ولها وجـوه كثيرة، فكيف يتـم اختزالها في صـورة عامـة مؤكدة كالتـي طرحتها الوضعية؟ فطريقة رسـم خطوات محددة بشـكل صارم لن يؤتي بالحقيقة كما ادعتها الوضعية «فتفترض الوضعية أن المعرفة موجودة خارج الخبرات الحية لموضوع الدراسة وأن الحقيقة يمكن اكتشافها من خلال مراجعة موضوعية وعقلانية للأدلة»[3]

وتأكيدا على هذه الرؤية، قدمت كود أيضا تحليلا لموضوع المنهج النسوي بتتبع مراحل إنتـاج المعرفة السـائدة، تلك التـي يتم إنتاجها من خـلال صانعي المعرفـة الذين يخضعون للسـلطة المهيمنة عـلى مجتمعهم، فبالتالي يكون مـن الطبيعي أن تأتي المعرفـة المنتجة معبرة فقـط عن هـذا القطاع. ولكن تكمن المشـكلة في أن يتم تعميم هـذه النتائج وتصبح معبرة عن النساء والفئات المهمشة، أولئك الذين لم يندرجوا ضمن العينات المبحوثة أصلا. وأوضحت كود بأمثلة صارخة من المجال الطبي، والذي يظهر فيه حجم المشكلة بشكل أكبر، حيث يتم وصف علاجات لا تناسـب النسـاء اللائي يختلف تكوينهن الجسـدي عن نموذج عينة البحث الذي يتم إنتاج العلاج على أساسه، فتحدث نتيجة لذلك مضاعفات غير متوقعة[4].

(1) Code. L. How Do We Know? Questions of Method in Feminist Practice In: Changing Methods, Feminists Transforming Practice, Burt.S. and Code.L. (ed),University of Toronto Press, 1995, (P13 - P44),P19 - P20.

(2) Brenda O'Neill, Feminist Methodology In: Code. L. Encyclopedia of Feminist Theories, P286.

(3) Ibid.

(4) Code. L. How Do We Know? P32 - P36.

ولذلك يتمثل التحدي الأول للمنهج النسوي في رد الاعتبار إلى خبرة المرأة ومشاركتها وتغيير المنهج القائم بحيث يستجيب لهذا الاعتبار. وتحاجج كود بأن سؤال المنهج في الإبستمولوجيا النسوية يمكن تناوله من خلال وجهة نظر كل من النسوية التجريبية ونظرية الموقف النسوي. فمن ناحية، تهتم النسوية التجريبية بالطريقة التي يتم بها جمع الأدلة والبراهين وتوضيح الهيمنة الذكورية التي تتحكم في إنتاج العلم والمعرفة من خلالها، ومن ناحية أخرى، تهتم وجهة نظر الموقف النسوي بالموقع المعرفي والتاريخي لخبرة المرأة.

ولكنها تقترح أيضا أن تكف النسويات عن تحديد منهج محدد يتم اتباعه، وإلا سوف تكون نسخة مكررة من النظريات المهيمنة. وفي المقابل، فإن الأفضل يكمن في عقد الصلة بين المنهج والواقع؛ لأن الواقع وتوصيفاته هما من يعملا على تشكيل المعرفة، بل وفرض المنهجية التي تتلاءم معه[1]، وفي الوقت نفسه فإن هذا الواقع وبناءاته يتسم بالعنصرية والظلم، ومن ثم سوف تكون المعرفة المنتجة متضافرة في بناءاته الاجتماعية وتصوراته، لذلك فإن كان لابد من تحديد للمنهج فالأفضل في أن نربطه بهذا الواقع.[2]

وتذهب الميثودولوجيا النسوية إلى القول بأسبقية الفرض[3] على الملاحظة[4]، فبدلا

(1) وهذه المنهجية تجلت بقوة في شعارها الذي سنقف عنده كثرا في حينه: «فكر عالميا وتصرف محليًا».

(2) Ibid.p41.

(3) قول الميثودولوجيا النسوية بأسبقية الفرض على الملاحظة إنما هو ليس بدع جديد، فقد سبقهم كارل بوبر (فيلسوف العلم الأشهر) إلى هذا الطرح، كما وأن لاعتناق النسوية هذا الطرح ما يبرره في مذهبهم الذي ينزع إلى إبراز دور العوامل الذاتية والتجارب الشعورية (والتي لا تعدم استدماجا للخلفيات الثقافية والمواقف الاجتماعية والأطر الحضارية والتاريخية... إلخ). فما الفرض إلا انبثاق من الذات العارفة، والتي هي مُجماع من كل هذه العوامل سالفة الذكر، بالإضافة إلى استدماجها لعناصر الموضوع قيد البحث والطرح. بل وأكثر من ذلك فإن الفرض (والذي هو البذرة الأولى لعملية التفسير العلمي، ومن ثم دخول عوامل ذاتية واجتماعية في بينية التفسير) لا يمثل مجرد دخول عوامل ذاتية في بينة التفسير العلمي، بل هو أيضا من يفرض على الباحث الآليات المنهجية (التي قد تكون متفردة) في التعاطي مع موضوعه، وكيفيات عملية الرصد والقياس والملاحظة... إلخ.

(4) وعلى النقيض من البدء بالفرض، فإن البدء بالملاحظة، ذلك التوجه التقليدي في فلسفة العلم، يعني أول ما يعني استبعاد الذات العارفة من المعادلة المعرفية، وكل ما هنالك أن الذات صفحة بيضاء (سلبية) تخطها التجربة.

من استقراء وتعميم للوقائع، يتم خلق وإبداع الفرض العلمي ليكون منطلق عملية الملاحظة. «الباحثتان النسويتان، ليز ستانلي وسو وايز (1983) على سبيل المثال، تحاججان بمنهجية تؤكد صحة التجارب الذاتية للنساء كنساء من خلال سردهن فقط دون افتراض أي تفسيرات بديلة عليهم»[1]

وكما تقوم الإبستمولوجيا النسوية بإعادة إنتاج المعرفة من وجهة نظر المرأة وكشف التراتب الهرمي والتحيز الذكوري في العلم والمعرفة، تقوم الميثودولوجيا النسوية أيضا بتشريح الواقع العلمي والمعرفي لفضح الممارسات الذكورية في العالم الأكاديمي، وكيف أن الرجل الأبيض هو الذي يرسم الطريق التي يجب أن يسير عليها الجميع، وهو وحده من يملك سلطة التصرف واتخاذ القرار. فهو الذي يوظف المنح الدراسية ويوجهها للموضوعات التي يريد، وعلى الرغم من تفوق النساء في مجالات علمية كالبيولوجيا وعلوم الحاسب الآلي إلا أن التعيينات في فرص العمل الخاصة بها من الرجال، فحاولت الميثودولوجيا النسوية توضيح الغبن الواقع على النساء في المؤسسات الأكاديمية التي يديرها الرجل الغربي وكشف المستور من غبن وتهميش للمرأة والآخر المهمش، فقد أوضحت لنا ما لم يكن موجودا، واستنطقت الماضي الغير مرئي كما تقول كود في تحليلها كيف تكون الميثودولوجيا النسوية «المنهجية النسوية تتعلم أن ترى ما هو غير موجود وتسمع ما لا يقال»[2].

لذا، ينبغي في رأي كود أن تقوم الميثودولوجيا النسوية على تعددية المناهج[3] التي طرحها فيرآبند فيلسوف المنهج، وتعبيره عن أن أكثر الاكتشافات البديعة لم تسر على منهج، بل كانت مجرد أفكار مجنونة في عصرها لاقت الكثير من الرفض والاستهجان إلى

(1) Brenda O'Neill, Feminist Methodology.P286.

(2) Code. L. How Do We Know? P23.

(3) وكما ذكرنا في الهامش سابقًا، فإن الفرض (والذي هو البذرة الأولى لعملية التفسير العلمي، ومن ثم دخول عوامل ذاتية واجتماعية في بينية التفسير) لا يمثل مجرد دخول عوامل ذاتية في بينة التفسير العلمي، بل هو أيضا من يفرض على الباحث الآليات المنهجية (التي قد تكون متفردة) في التعاطي مع موضوعه، وكيفيات عملية الرصد والقياس والملاحظة... إلخ.

أن ثبت صحتها. كما أن المنهج يرتبط بالسياق الاجتماعي والخلفية الاجتماعية وراء النظرية، فالسياق الاجتماعي جزء مهم ومؤثر في إخراج النظرية بالشكل التي أصبحت عليه.

كذلك فإن وضع الشعور والإحساس والعاطفة والانفعال والوجد والتذوق والتعهد والرعاية والعلاقات الإنسانية، إن وضع كل تلك المسائل الذاتية التي تربط بين الباحثين وبعضهم البعض في الاعتبار توفر درجة عالية من الموضوعية أكثر من تلك المعهودة، وكذلك يؤدي إنماء قيمة التزامل والتعاون المشترك في الإنجاز العلمي والأكاديمي إلى دعم روح الفريق وتنمية مشاعر المشاركة والقيم الأخلاقية بين زملاء العمل، لا حمى أسبقية النشر والتصارع من أجل الحصول على درجات الترقية أو المناصب وكسب المقاعد والأصوات.

وتبرز بعد كل ما تقدم المعضلة الأساسية أمام الميثودولوجيا النسوية، والتي تكمن في آليات التحقق من صحة المعرفة المنتجة واختبارها، وذلك بمراعاة أن تتدخل الخبرة والسياقات الخاصة بالعارف وموقعه في تكوين العملية المعرفية. ولقد تمت معالجة هذه المعضلة من خلال إضافة عناصر جديدة للتحقق المعرفي والمنهج النسوي في افتراضات كالتالي:

السياقية Contextualism:

وتعرفها لورين في موسوعتها للفلسفة النسوية على أنها: «طريقة لفهم وتفسير المعرفة من خلال الإطار الاجتماعي الذي أنتجت فيه؛ وذلك لأن طريقة ممارستنا للحياة وفهمنا للعالم المحيط يشكل معرفتنا»[1] مما يعني أن هذا الواقع المعيش جزء من المنهج.

تنتقد لورين نظرية المعرفة الوضعية والتجريبية التي ترفض الاعتراف بأن السياق الذي أُنتجت فيه المعرفة عاملا مؤثّرا في تكوينها، مبررين ذلك بأن وضع السياق في الاعتبار يؤثر بالسلب على الموضوعية والحيادية المطلوبين حتى تكون النظرية المنتجة عالمية ويتم الاعتراف بها في الأوساط العلمية. لكن الفلسفة النسوية وما بعد الاستعمارية وما بعد الحداثة قاموا بدراسة وتحليل إنتاج المعرفة خارج سياقها الاجتماعي لكشف

(1) Code, Lorraine, Contextualism, In: Encyclopedia of Feminist Theories, P107.

التحيز الذكوري وأحادية الرؤية اللتان نالتا من الموضوعية التي تزعمها وتنشدها الفلسفة الوضعية، كما أكدت على أن المنهج العلمي السليم هو الذي يضع في الحسبان قضية السياق. لذلك فقد أظهر النسويون ومناهضي العنصرية كيف أن النظريات العالمية للطبيعة البشرية أو الذكورة والأنوثة لها تأثيرات قهرية وقمعية لأنها تخفق في معالجة العوامل 'السياقية' التي تنتج التنوع البشري عبر الوجود الزمني والجغرافي والمواقع الثقافية.[1] والمعرفة لكي تكون مكتملة يجب أن تضم السياق الذي أنتجت فيه، وتتساءل النسوية: كيف يمكن فصل النص عن السياق؟! كيف يمكننا دراسة البشرية خارج السياق الذي نشأت فيه؟! فكانت دعواهم باستحالة فصل النص عن السياق.

غير أن لورين تضيف أيضا أن السياق هنا ليس سياقا اجتماعيا فحسب، وإنما رفعت سقف التحليلات النسوية عاليا وجعلت التحليلات المطلوبة أكثر عمقا، فتقول لورين: بأن السياق هنا لا يمكن اعتباره سياق المجتمع فقط والذي هو بدوره تتدخل وتتحكم فيه السلطة السياسية، بل نحن في حاجة إلى تحليلات أعمق من مجرد السياق الاجتماعي المشكل بواسطة سلطة المجتمع ذاته.

«من الصعب التصديق أن السياق هنا هو سياق المجتمع الثقافي والوضع المعيشي المحدد، وهذا المجتمع في حد ذاته بطريارکي وقائم على التحيز الجنسي ضد المرأة وعنصري ومصاب برهاب المثلية، والسياق هنا مفتوح للتدخل السياسي، لذلك تطالب بعض النسويات بأن تكون التحليلات متعددة الطبقات، بحيث تأخذ في الاعتبار الأنشطة والممارسات والهياكل الاجتماعية والأجزاء المتشابكة والمعقدة»[2]

المنظورية/ وجهة نظر محددة Perspectivism:

ويتم ترجمتها إلى العربية على المنظور المحدد، وهي أيضا عنصر مهم في نظرية المعرفة النسوية ومن العناصر المميزة لمنهجيتها. وقد عرضت لها لورين في موسوعتها الفلسفية

(1) Ibid, P108.

(2) Code. L. Perspectivism, In: Encyclopedia of Feminist Theories, P320.

وعرفتها كالتالي: «المنظورية في نظرية المعرفة هي التي تنكر وجود ما يسمى بوجهة نظر عالمية وواحدة لرؤية الواقع أو طريق واحد للوصول إلى الحقيقة، وذلك انطلاقا من أن رؤية الواقع تختلف وتتعدد وفقا لمنظور الملاحظ أو المراقب وأيضا زاوية الرصد والموقع والأوضاع والظروف»[1]. كما حللت لورين الآراء المختلفة حول الموضوع، فبعض المنظوريين يرون أن جميع وجهات النظر سوف تتحد وتتلاقى في النهاية في مخطط واحد للمعرفة، والبعض الآخر منهم يرى أن بعضا من وجهات نظر العارفين تختلف بشكل راديكالي يصعب استيعابه. وهنا تقول دوروثي سيمث أن المعرفة المستمدة من الأنشطة النسائية المختلفة تختلف بشكل جذري عن تلك المستمدة من حياة الأثرياء من الرجال، كما تختلف المعرفة المستمدة من وجهات نظر المهمشين عن أصحاب الامتيازات.

تصعيد الوعي consciousness - raising:

يعد تصعيد الوعي منهجا لتطوير النظرية النسوية؛ فهو يقوم على مشاركة خبرات النساء المختلفة حول التمايز الجنسي وأدوار الجنسين وأعمال المنزل والبنى التي توضح الهيمنة الذكورية في تكوين المجتمعات، «استخدم مصطلح 'تصعيد الوعي' لأول مرة في سياق نسوي في عام 1969 من قبل جماعة Redstockings» الجوارب الحمراء»[2]، النساء الراديكاليات في مدينة نيويورك»[3] حيث تجتمع النساء لمشاركة خبراتهن المختلفة بخصوص الحقوق المدنية ومناهضة الحرب، وفي الوقت ذاته تعمل على رفع وعي النساء

(1) Ibid.

(2) اسم «ريدستوكينجس» هو اسم أطلق على مجموعة من النساء كن يجتمعن ليناقشن القضايا المتعلقة بتحرير المرأة. ووضع لتمثيل اتحاد اثنين من التقاليد: تسمية ‹bluestocking› وهي معلقة بشكل سلبي على النسويات في القرون السابقة - و«الأحمر» للثور. وهي حركة مهتمة بشؤون تحرير المرأة والعمل على نشر الشعارات والمعرفة المؤيدة للمرأة مثل رفع الوعي والأختية وما هو شخصي هو سياسي وسياسة الأعمال المنزلية. وتعد «ريدستوكينجس» اليوم نوعًا جديدًا من ‹القاعدة الفكرية› الناشطة، التي أسسها المحاربون القدامى، للدفاع عن أجندة تحرير المرأة والنهوض بها.

See,http://www.redstockings.org/index.php/about - redstockings

(3) Joyce Trebilcot, consciousness - raising, IN:Encyclopedia of Feminist Theories.P106.

بالقضايا المجتمعية والتعريف بحقوقهن وتحليل وسائل هيمنة الرجل، كما تعمل على ربط الأواصر بين النساء لمشاركات التجارب الشخصية فتشعر المرأة بأنها ليست وحدها و إنما الكثيرات تعرضن لما تعرضت له، ومن ثم يفتح المجال أكثر لكسب الثقة ورفع الوعي لدى المرأة، ومن ثم يندرج من الخاص إلى العام و يساعد في حركات التحرر والفعل السياسي في المجتمع بشكل يحسن وضع النساء.

النظرة التطبيعية Naturalistic:

التطبيعية، أي انطلاقا من الطبيعة، يعرفها قاموس كمبردج على أنها: «النظرة التي تعرض للتجارب والخبرات العامة كما هي في الطبيعة، بدلا عن اقتراح صورا مغايرة أو إدخال تعديلات على هذه الصور».

وقد تبنتها النسوية ونادت بربط المعرفة بوقائع الحياة اليومية والخبرات العامة، وتوثيق الصلة بين الإبستمولوجيا والأخلاق... وهذا ما أكدته كود في أكثر من موضع، وذلك من خلال المعرفة المسؤولة وربط فلسفة العلم بفلسفة الأخلاق و إدخال القيم إلى مجال العلم بعد أن قامت الوضعية بتنحيتها جانبا.

المنهج الطبيعي إذن هو الذي يعيد تصور المشروع الإبستمولوجي من خلال تجنب وضع شروط ومبادئ مسبقة للمعرفة بشكل عام، و ينفي إمكانية تحديد مبادئ وشروط رسمية لإنتاج المعرفة في العموم. و يدرس أصحاب النزعة الطبيعية كيفية إنتاج معرفة محددة أو خاصة من خلال عارفين طبيعيين عن طريق استخلاص مبادئ معيارية من الطبيعة تجعل المعرفة المنتجة ممكنة في ممارسات العالم الطبيعي، أي مطابقة للواقع.

وتختلف الإبستمولوجيات النسويات مع تفسيرات وتحليلات المعرفة المنتجة من التيار الرئيس للإبستمولوجيا، والذي ينحى منحى ذكوريا في أغلب الأحوال. ولذلك لجأوا إلى الإبستمولوجيا التطبيعية التي تتطلب تماشي المعرفة مع الطبيعة والواقع اليومي المعيش. ووجدت التطبيعية نقطة الانطلاق لها في فلسفة كوين، حيث أن المعرفة التطبيعية سوف

تتساوي إلى حد كبير بالمعرفة المنتجة من قبل العلماء في المعامل، أي أكثر موثقية. وربما هذا يحل الإشكال الدائر حول تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية والاجتماعية من أجل تحقيق الدقة المطلوبة والتي تتساوى مع الدقة العلمية.

كما يمكن اعتبار الإبستمولوجيا فصلا أو فرعا من فروع علم النفس، حيث أن لديه أفضل صورة معبرة عن الإدراك والمعرفة عند البشر. وقد صارت فكرة الإبستمولوجيا التطبيعية محل جدال بين النسويات، فقد لاقت قبولا عند البعض واعتبرنها وسيلة جديدة لإعادة بناء المعرفة بشكل أفضل من الإبستمولوجيا المعهودة، ولكنهن اشترطن مراجعتها أولا للتأكد من خلوها من الإرث الإبستمولوجي التقليدي حتى يمكن الموافقة عليه. وكان السؤال الشاغل لهن: هل المعرفة التي ترجع إلى الواقع المعيش وتصف الممارسات الحياتية اليومية سوف تكون دقيقة بشكل كاف على غرار التجارب العلمية التي يجريها العلماء في المعامل؟ وفي ذلك تقول لورين: «ثار جدل بين العديد من النسويات حول مفاهيم وتصورات المذهب العلمي/ العلموية scientism والمذهب الطبيعي الأرثوذكس orthodox naturalism للطبيعة، وتوصلن إلى أن التطبيعية الجديدة يجب أن تخضع للفحص الدقيق للتأكد من أنها لن تكرر إرث الإبستمولوجيا التقليدية من ظلم وصمت للمرأة والآخر المهمش»[1]. وتؤيد لورين الطبيعانية التي تتضمن الممارسات المعرفية كالطب والقانون.

خامسا: الدور الثوري للورين كود في الإبستمولوجيا النسوية

إن عناصر المعالجة النسوية التي أشرنا إليها وفصلنا فيها، إنما تمثل معالجة لتربة الإبستمولوجيا التي جرت عليها على مر القرون والأحقاب عمليات التجريف والتبوير لتمسي صحراء قاحلة مجردة من عناصر الحياة والخصب والنماء، والتي تتمثل في هذه الحالة في الذات والقيم والشعور والعواطف والخبرات المعيشة... إلخ. وانطلاقا من هذا تتناول لورين كود طرحها للنظرية الإبستمولوجية النسوية مؤكدة أولا أنه قد جرت العادة على

(1) Code. L. Naturalistic method/Naturalised Epistemology, In: Encyclopedia of Feminist Theories, P361 - P362.

أن يتم النظر للإبستمولوجيا من وجهة النظر الخارجة عن الفلسفة، ووجهة نظر المجتمع للإبستمولوجيا أنها موضوع مجرد مرتبط بنسق الفلسفة ومجتمع الفلاسفة، كما يبحث في المعرفة العلمية والفلسفية وحسب، وهذا بالفعل ما هو قائم. لكن الإبستمولوجيا النسوية جاءت لتغيير هذه الصورة النمطية عن الإبستمولوجيا؛ فلم تعد وقفا على مجتمع الفلاسفة والعلماء بما يقومون به من إنتاج للمعرفة الأكاديمية، وإنما نزلت إلى حياة وخبرة ورؤية النساء والمهمشين والمقموعين، تبحث من خلال ما يعانون في الواقع وتنطلق من معاناتهم. لقد أنزلت النظرية من علياء التجريد إلى أرض التطبيق والممارسة، وكان الغرض الأول من إنتاج المعرفة البديلة القادرة على التغيير الاجتماعي أن تكون تطبيقية يمكن ممارستها على الواقع لحل أزماته، وربما يبين لنا هذا التحول أكثر، منطلقات انتقاداتهم للإبستمولوجيا السائدة كونها تهتم منذ البداية بالنظرية دون التطبيق.

بيد أن النسويات إذ يصررن - كما رأينا - على وضع الذات العارفة في الاعتبار وكذلك السياق الاجتماعي واعتبار القيم والموقع المعرفي... إلخ، كما يصررن في المقابل - وبالرغم من كل ما سبق - على نبذ واستبعاد النسبوية المعرفية من مجال الحوار والنقاش، في هذا الوضع المتأزم من التناقض، نجد لورين كود تقوم بعزف منفرد على وتر «النسبوية المعرفية»، لا يلبث هذا العزف أن يتعالى ويتضح وسط صخب الآراء المتضاربة ليشق طريقه إلى مجال الحوار والنقاش وليميط اللثام عن تناقض حاد في دعاوي النسويات ومزاعمهن، وليعيد التناغم والانسجام في إيقاعات الخطاب الإبستمولوجي النسوي، وليبين كذلك عن حقيقة مفادها أن لا مناص للخروج من فخ الإمبريالية المعرفية في الإبستمولوجيا السائدة من ناحية، وتجاوز هذا التناقض الحاد في الإبستمولوجيا النسوية من ناحية أخرى، سوى برفع لواء النسبوية المعرفية... ولكن بشروط وحدود.

وتظهر براعة لورين السياسية والتكنيكية جلية في تحليلها لموضوع نظرية المعرفة، وكيف أنها تتعامل بهدوء وحكمة من خلال تحليل السائد والتعامل معه بلطف، ثم بناء مرجعية جديدة يتم عرضها للمناقشة على المجتمع المعرفي كونها (تطويرًا) يشمل نظرية

المعرفـة، وبمرور الوقت تسـتطيع أن تكوّن المـرأة مكانتها كعارفة وتصيـغ نظرية معرفة جديدة. ففي الفصل الخامس من كتابها «ماذا يمكنها أن تعرف؟» والخاص بالإبسـتمولوجيا النسوية، حاولت أن توضح لنا كيف يمكن بناء جذور قوية وكيف يمكن تطويرها بشكل يضمـن اسـتمرارها ويقلل الاحتكاك الرافـض مع المجتمع المعرفي، وعلقـت أكثر من مرة بـأن الغرض من إنتاج معرفة بديلة قائمة على خبرات النسـاء وتنطلـق من حيواتهن، إنما هو بمثابـة إثراء لنظريـة المعرفة؛ كي تجعل منها نظرية تطبيقية تمتلك قدرا من الحقائق الواقعة. وبهـذا فهي تقترح على الإبسـتمولوجيات النسـويات عـدم طرح وتقديم الإبسـتمولوجيا النسوية باعتبارها بديلا للإبستمولوجيا السائدة، وإنما يفضل أن يتم تناولها على أنها مرحلة تطورية للإبستمولوجيا حتى يتم تقبلها والتفاعل معها، على الأقل في البداية، وهذا ما سوف يكون أفضل للطرفين. ولا شك في أن هذا التكنيك الذي تنتهجه كود مما يبين لنا ملمحا مميزا مـن ملامح منهـج لورين، وهو التطبيق العمـلي لما تتبناه من قضايـا ونظريات، أو قل عدم الفصـل بين النظرية والتطبيق (وهي ثنائية مـن الثنائيات العتيقة)، ويتمثل هذا التطبيق في الالتزام بقيم القضايا النسـوية التي تتبناها في تعاملهـا حتى مع المختلفة معه اختلافا يكاد يكـون جذريا، ومن هـذه القيم قيمة التعاون والتزامل والحوار مـع الآخر... إلخ. بل أكثر مـن ذلـك أن لورين لم تجلس في برجها تنظر فقط للنسـويات عن السـبيل التي ينبغي لهن أن يسـلكن، وإنما أخذت بزمام المبادرة بنفسـها وانطلقت تشارك، ولأول مرة، في حوار مع شخصيات كبيرة في تيار نظرية المعرفة الأنجلو - أمريكية، وذلك من أجل النقد والفحص الدقيق للدعاوي والمطالبات الموضوعية وحيادية القيم.

ومما يُظهر نفاذ رؤية لورين الثاقبة أيضا، في الناحية التكنيكية بعدما أظهرت لنا عمقا في الناحية النظرية، تأكيدها على أن النسـويات يجب أن يبحثن في مراكز السـلطة ليجدن المكان المناسـب لهن؛ وذلك لعلمها بأن الموقع السـياسي سـوف يتيح للنساء سرعة التصرف والتعامل وفرض أنفسهن على صناع القرار في المجتمع المعرفي[1]. ولكن في ذات الوقت، فإن

(1) بالطبع تواجد النساء في مواقع السلطة يمثل أهمية كبيرة تتمثل في امتلاك القدرة على اتخاذ القرارات وآلية تطبيقها، وعدم وصول النساء إلى هذه المواقع يحصر أفكارهن في نطاق التنظير لا التطبيق، ونجد مثال=

هذا الموقع لن يساق لها على طبق من ذهب، ولن تتمكن هي من بلوغه ما لم تكن جديرة به في نظر المجتمع والثقافة، وإن هذه الجدارة لن تتأتى إلا عبر تمكن المرأة معرفيا. فعن أهمية المعرفة في حياتنا تقول لورين كود: «إن المعرفة ذات أهمية حاسمة في كل جوانب الحياة، ويُعد امتلاكها قوةً وتمكينًا، وفقدانها ضعف وعجز، ويجب على النساء أن يكنّ في موضع يتيح لهن اكتساب المعرفة حتى يستطعن التعامل بكفاءة مع مظاهر القمع التي تشكل حياتهن، ويتم بناء الإبستمولوجيات بحيث تكون ذات طابع تحرري».[1]

وتختتم لورين كتابها «ماذا يمكنها أن تعرف؟» بخلاصة تحليلها لموضوع الإبستمولوجيا، وأهميتها الجذرية بالنسبة للمرأة تحديدا، وكيف أن التمكين الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لن يتم بشكل كامل إلا من خلال تغيير المنظومة المعرفية أولا، فتقول: «المرأة بعيدة كل البعد عن وضع نهاية للقمع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي تتعرض له، ولن تستطيع تحقيق التمكين لها بشكل كامل قبل أن تتمكن أولا من محو القمع المعرفي الواقع عليها، كما أن حركة تحرير المرأة لن تفييدها كثيرا»[2]

= صارخ على ذلك في النسوية المصرية التي لم تحرز أي تقدم ملموس على أرض الواقع وإنما فقط دراسات وتنظيرات، وذلك لأنهن بعيدات عن مراكز السلطة، وحتى لو أتيحت لهن فإن المؤسسات السياسية تختار المدجنات منهن حتى يسرن وفقا لذات المنظومة السائدة. أما المنظرات الحقيقيات اللائي يعبرن عن الوعي الجمعي وينخرطن في المشكلات الحية الخاصة بحيوات النساء فهن بعيدات كل البعد عن مواضع صنع القرار.

(1) Code, Lorraine, What Can She Know? iix.

(2) Ibid, p324.

الخلاصة

الإبستمولوجيا النسوية هي آخر ما تطور وتبلور عن مراحل طويلة من الفكر الإبستمولوجي الذي كان حصيلة قرائح الرجال، والذي طالت سيادته على مر الدهر وتعاقب الأحقاب.

وهكذا انطلقت فلسفة العلم النسوية مجددة ومفندة في فلسفة العلم السائدة، وكان من أكثر موضوعاتها إثارة هو مشروع إنتاج معرفة بديلة تهتم بخبرة النساء وتضع في اعتبارها الجنوسة والواقع من أجل التغيير المجتمعي، والذي سوف ينعكس بالضرورة على كل قطاعات الحياة؛ وذلك لأن المعرفة لن تكون موضوعًا مجردًا ومقتصرا على المجال الأكاديمي فقط و إنما سوف تنطلق من حيوات النساء. وهذه النظرة التي استجدت في حقل الإبستمولوجيا إنما تستتبع بالضرورة مناهج جديدة أو إضافية تلائم هذه النظرة وتتكامل معها وتحقق مرادها.

و إذا كانت النسويات تهتم وتركز في البداية على خبرة المرأة فهذا لا يعنى أن تقع في نفس الشرك الذي وقعت فيه نظرية المعرفة السائدة، ولكن هي فقط طبيعة المرحلة التي تقضي الانتصار لهذا (الآخر) المهمش حتى يظهر و يتم وضعه في مكانة لائقة، ثم يتم الدمج بين الخبرتين الأنثوية والذكورية معا.

و يتضح لنا أيضا كيف أن الإبستمولوجيا النسوية نسبوية، حتى و إن كانت النسويات يملن إلى الاعتراف فقط بالنسبوية الثقافية والتاريخية إلا أن كود سوف تؤكد أهميتها على المستوى المعرفي فيما بعد. وليس الأمر كذلك فقط، بل ومن خلال التحليلات العميقة سوف تكشف للنسويات كيف أن النسبوية ملهمة للفكر النسوي وداعمة لبقائه واستمراره.